SCANNED BY
JAMAL HATMAL

إيف تيريو

# أشيني

مدونة أبو عبدو

( رواية )

ترجمة :

د. محمد عبدو النجاري

# أشيني

• دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية، دمشق، برامكة، ص. ب: 4490
هاتف و فاكس : 2126326
• الطبعة الأولى 1999 - 1000 نسخة
بالتعاون مع:
"Conseil des Arts Du Canada"

إيف تيريو

# أشيـــني

«رواية»

ترجمها عـن الـفـرنسية:
د. محمد عبدو النجاري

YVES THÉRIAULT

# ASHINI

TRADUCTION: MOHAMMAD NAJARI

"Ce liver a reçu une subvention du Conseil des Arts Du Canada"

Edition Al-Hassad

# المقدمة

إيف تيريو كاتب كندي ولد في مدينة كيبيك سنة 1915، وتوفي في مونريال سنة 1983. انتخب رئيساً لاتحاد كتاب كندا 1965. وشغل منصب مدير العلاقات الثقافية لادارة شؤون الهنود الحمر.

أصدر إيف تيريو عدة مجموعات قصصية أثبت فيها أنه معلم النص المختصر، وأن بوسعه أن يعكس حياة كاملة من خلال صفحات قليلة. ثم كرس، بعد ذلك، رواياته العديدة لرسم حياة سكان كندا الأصليين من الهنود الحمر.

لقد استحوذت شخصيات «أكاكوك» و«أشيني» و«بيجانو» و«مينود» على تفكير إيف تيريو وروحه ردحاً طويلاً قبل أن يكتب عنها روايات تحمل الأسماء ذاتها، روايات تعدُّ بحق من روائع الأدب المكتوب عن الهنود الحمر في أمريكا الشمالية.

أما رواية «أشيني» التي نقدمها لقراء العربية، فلقد استقبلت بحرارة منذ صدورها سنة 1960، ولم تفتر هذه الحرارة على مر السنين، كما أن الجوائز والمكافآت التي نالها المؤلف بعد صدور «أشيني» لا تعكس سوى جزء من مكانة «أشيني» عند القراء الذين يزداد عددهم باستمرار..

لقد رحب النقاد بالاجماع، برواية «أشيني» وعدّوها عملاً رائعاً، وضرباً من ملاحم الحرية والكرامة.

وسأكتفي هنا بتقديم نبذ مما كتبه النقاد عن رواية «أشيني»، اقتبستها من مراجع كندية مختلفة.

«إن ما يترك أثراً بالغاً في نفس القارئ هو لغة الرواية.. «لغة ساحرة ولكنها بسيطة وسهلة وكلاسيكية، مع غنائية خفية شبه متقشفة...». و«جمل دسمة وكاملة وغنية...» و«اسلوب متزن ومعتدل وفاخر..»

«تتغنى رواية «أشيني» بروح سلالة الجبليين، من خلال لغة رصينة وموسيقية... نفحة بطولية تبعث الحياة في الشخصية المحورية لهذه اللوحة الجدارية حيث يتفجر انحطاط شعب كصرخة دم، ويكبر المشهد ليشمل أبعاد البشرية برمتها...».

«إن «أشيني» هي طراوة النباتات وحرية الفضاء الرحب.

إنها قصيدة رجل يتقن الاصغاء إلى صفير الريح بين أوراق الشجر، وتغريد الطيور فوق الأغصان.. إنها الهمس الرقيق للجدول المنساب عبر الغابة...».

«أشيني» هي رواية الانتماء، إنها التعبير الأكثر حساسية عن حب الوطن، هذا الحب الذي يصبح كل مظهر من مظاهره ـ نظرة ملقاة على الجبل، ونزهة في الغابة، ويد ممتدة نحو وردة ـ يصبح طقساً حقيقياً، شيئاً مقدساً يبلغ ـ في قلب الانسان ـ أبعاد شعرٍ لا تستطيع التعبير عنه سوى الكلمة البليغة...».

# 1

عندما تُوفِّيَت، ربطتُ ثوبها عند الكاحلين. وأوثقتُ يديها كي لا تتأرجحا. ونزعت، عن جذوع أشجار بتولا قريبة، سيوراً طويلة من اللحاء كفّنت بها الجسد اللينّ الذي كان لا يزال دافئاً.

بيدي ومديتي حفرت، عند أسفل صنوبرة كبيرة، طبقة الأشواك والتربة الطينية.

قبرٌ في الغرب، لتعرف المرأة كيف تسافر تواً إلى موطن **الصيد الوفير**.

على جذع الصنوبرة الكبيرة نقشت علامة السَّكينة.

* * *

يرقد إبني الأول في بحيرة «ويشكتسان»، بعد أن غرق أثناء فيض الربيع. رجلٌ أبيض، تفوح منه رائحة ويسكي نتنة،

قتل ابني الثاني خلال الصيد. إنه مجرد حادث.

ابنتي هربت من الغابة لتخدم البيض في المدينة.

والآن ماتت زوجتي، فبقيت وحيداً.

أشعر أني الدم الأخير من السلالة العظيمة التي انحدرت من الأصقاع الجنوبية، وبنت لنفسها عالماً في غابة «الأونغافا» هذه.

الدم الأخير، لأن الباقين يسكنون بالقرب من البحر عند مصب الانهار، محتجزين هناك بنِعَم البيض المزيفة. باعوا أنفسهم للبيض لقاء كفاف يومهم.

أنا أشيني، الصخرة، حجر الصوان الصلب، حجر القمم العالي المتآكل بالريح، والمصقول بالأمطار الباردة.

أشيني، ربما، ملك هذه الديار الواسعة كلها.

وحيد في هذه السلالة، وحيد في هذه العبودية.

ولكنه وحيد.

أعتقد أن بي رغبة في معرفة كيفية البكاء.

.....

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

سلكت درب الدببة، لأصعد ثانية المنطقة الجبلية ما بين «ميكاتينا» و«غوانيش».

التفتُّ مرتين للتأكد، وكان الاقليم خالياً من خلفي.

مشيت ذاك النهار حتى ساعة متأخرة من المساء، ثم تدثرت بردائي الصوفي ونمت دون أن أتناول الطعام. عند الفجر صاح طائر الغطاس قريباً مني، على ضفة البحيرة، فأكلت قليلاً، لقمتين من الـ«بانوك» (Bannock)

هل بلغت حقاً الستين من عمري؟ قالوا لي أنني ولدت سنة القنافذ، السنة التي تلت زمن موت الأشجار المورقة، منذ ستين سنة خلت. لا يمكنني أن أجزم بذلك.

هل عشت حقاً؟

لقد لفّ الضباب كل شيء. فما أن رحلت البنت، حتى عجزت عن تذكرها. (مع أنها قاسية وسمراء وصلبة كتربة تموز الدافئة. كنت أعرف ذلك. وربما أعرف وجهها، وصيحة فمها عندما كانت تناديني من احدى ضفتي البحيرة إلى الأخرى. وأغنيتها... أما نظرتها ؟ أما كلماتها...؟).

ولداي دخلا أيضاً وسط هذا الضباب، حيث لا أستطيع أن استشف شيئاً. كان الأكبر، مثلي، وفياً لدمه، وكان طويل القامة مثلي، وعارفاً بعلومنا كلها. كما هو شأني.

أما الآخر فكان يرغب في النزول صوب مدينة «مينغان» أو مدينة «بيتسياميتس». كان يثق بالبيض. ثقة جعلته يُقتل برصاصة رجل أبيض.

(اقول لك كيف وقع ذلك. لقد ظن الأبيض أنه يرى حركة في الدغل. ولأنه كان ثملاً فقد كانت حواسه متبلدة. أطلق الرصاص، أمّا من كان في الدغل يستطلع الأوجار فقد قُتل. إنه إبني... الأخير...).

وبعد ذلك الزوجة.

ثم الوحدة.

توجّب عليّ أن أتعلم، ساعة فساعة، سرّ الوحدة. كيف أعيش وحيداً، أسير وحيداً، أنام وحيداً، آكل، وأقرر...

في الأقاليم الجبلية، بحثت عن آثار حيوانات، للاستهلاك: أرنب بري أو قنفذ. (عادت القنافذ هذه السنة. وسيتوفر الخز، ويكون نصب الفخاخ مثمراً).

لم أعثر إلا على آثار السمور المسكي الصيفي، ذي اللحم القاسي. فقتلت أول حجل طار من الدغل وأكلته في الحال لأن الجوع كان ينهشني.

كانت الشمس عالية، تشير إلى منتصف النهار.

وكانت الغابة ساكنة تحت نور الصيف الباهر.

لم يكن هناك سوى دبابير كانت تطن، بلا هوادة بالقرب مني، ملحة عليّ أن استأنف مسيري مخلياً المكان.

عندما مالت الشمس نحو الغروب تابعت سيري.

لم أكن أعرف إلى أين أذهب.

على هذا النحو، كما ترى، تَعلَّم الإنسان فيما مضى، كثيراً من الأشياء في الغابات القديمة. كان يهيم على وجهه وحيداً لا يعرف إلى أين يسير. فأنفق ما يلزمه من الوقت ليقعد ويتأمل الحياة على مستوى الأرض. وتسلق الأشجار ليتأمل الحياة في السماء. وإذا ما تناهى إلى سمعه صوت الحيوانات أو الريح أو المياه أو الأغصان، فقد كان ينصت إليه حتى يعرفه.

أعتقد، اليوم، أن مصلحة الانسان هي في وحدته، وأنه يفقد طاقاته كلها عندما يرتبط بانسان آخر.

انتظر، انني أسيء التعبير.

لا شك أنني أرغب في عودة إبنتي وأن يُبعث ولداي، وتنهض زوجتي من قبرها المعتم. ولكنني أدرك اليوم جيداً بأن

فكرتي الكبيرة لم تأت إلا وقت الوحدة.

وهكذا لم يكن لدي أي شيء آخر، لاشيء ولا أحد، سوى رغبة جامحة في ألّا أموت قبل أن أترك علامات عميقة في بلاد الرجال هذه

.....

مرّ شهران. شهران لم يبلغني خلالهما، رداً على ندائي، سوى دوي طلقات بندقيتي، وصوت طائر (الانغولڤانت) الأجش، وعواء الذئاب، أو هدير سيل يخترق الجبل.

منذ شهرين لم أسمع، حقيقة، في داخلي سوى دقّات قلبي، عندما كانت تلح عليّ الدموع التي لا أملك الحق في سكبها.

إذا كان هذا الموطن هو موطن الصيد الوفير حقاً في أعالي أكبر البحيرات، حيث يعيش أبناء دمي وقضيتي وسلالتي، فهل ستجيبون عن ندائي مرة واحدة، هذه المرة الوحيدة، عندما أصيح في صحرائي؟...

# 2

استحوذَتْ على المساءات الآن برودة جافة ذات رياح. والجليد الأبيض يغطي أوراق الصباح والأرض المستوية.

عما قريب، ستتجمد البحيرات كلها، وسيغمر الصقيع كل شيء، وسيسقط الثلج الأول قاسياً جامداً.

لا بد من نار في الليل. فإنني لم أعد أنام على دعامات مسطحة، بل انحشِرُ في شقوق الصخور أو تحت الأجمات.

سيتوجب عليّ أن أبني، خلال مدة وجيزة، مأوىً من الطحالب وأغصان الصنوبر.

سيحين آنذاك موسم الفراء، وسيكون بوسعي اصطياد حيوانات استبدل جلودها، في الربيع، بما أحتاجه ككائن حي.

لم أقابل أحداً منذ أن صرت وحيداً. إنني أسكن المناطق الداخلية من البلاد. وبعيداً في الغرب والجنوب ثمة مناجم

حديد كبيرة، ومدن جديدة، وسكك حديد، وعلى ضفة «الخليج» على طول «الساحل الشمالي» ـ كما يسميه البيض ـ حضارة تزدهر.

إنني في منطقة شبه مجهولة، حيث لا يوجد سوى بعض المتشردين من أمثالي، ومن المنعزلين من أمثال الفارين والنفعيين والذين هم أسوأ ذئاب القطيع.

ولكن هؤلاء الآخرين، رفاق السماء الرحيبة هؤلاء، لم ألتق، خلال مدة طويلة، بظل أحد منهم. سواء أكان ذاك من قبيلة «الناسكابي» عدو دمي، أو قبيلة «كرّي» أو قبيلة «واسوانيبي»، أو آخر الأحياء في سلالة «بابينا شواز» العريقة، لا أحد. لا شيء سوى أصدائي في الأرجاء الواسعة.

ثم في نهاية شهر أيلول، التقيت بكاكاتسو. فقد ظهر لي، ذات مساء كنت فيه أمام ناري لا أفكر بشيء. مع ليل البحيرات الزرقاء والسماء المزدانة بالنجوم.

كان الليل خفيفاً محمولاً على الريح الباردة، مرفوعاً عن الأرض، كما يمكن أن يقال. وفي الأقاصي اصوات اعتيادية: طيور الليل، قطيع ذئاب في أثناء الصيد، همهمة نافدة الصبر لدب قد أقلقَتْ راحته.

لم أحس بأية جلبة آدمية، وفجأة رأيت كاكاتسو أمامي. تكلم قبل أن أتمكن من التسديد واطلاق النار.

ـ ميلتيبيشكاوا

كانت ليلة رائعة حقاً. كلمة الوفاق. التحية التي تعيد أواصر القربى.

ـ حسناً.

فاستطعت أن أضع البندقية قريباً مني.

كان الرجل من الجبليين. على بصيص النار رأيت ـ تواً ـ الشعر المضفور عند الصدغين، والوجه الساكن المتعالي، والنظرة الغامضة. لقد سبق أن رايته. إنني أعرفه حسب اعتقادي.

لم يكن ذا قسمات هجينة كأهل قبيلة «ناسكابي» ولا نحيلاً جداً سيء التغذية كأهل قبيلة «كري»، ولا ماكر العينين كأهل قبيلة «الواسوانيبي». لقد كان مثلي، هذا القادم من الليل البارد، واحداً من سلالة «أبيناكيز» الكبيرة. إنه قادم من الجنوب، باحث عن غابة غنية.

أخذ مكاناً مواجهاً لي في الطرف الآخر من النار.

قدّمت له ما تبقى من لحم الأرنب الطازج المشوي، ولكنه هزّ رأسه.

- أكلت عند الوادي الثاني من هنا. أسافر في الليل.

- وفي النهار أيضاً؟

- أجل.

كان يجب عليّ أن أمهله أكثر ليتابع حديثه وفق رغبته. راقبني طويلاً، فأدركت بأن نظرته تنبش في داخلي، مثلما كانت نظرتي تنبش في داخله. وأنه عرف عني بمقدار ما عرفت عنه خلال هذه المراقبة.

(إن هذا الرجل لوحيد مثلي، لأن شقاً في سترته عند الكتف، قد رُتق بخيط قطني، خيط البيض ذاك. لو كانت لديه امرأة، لعرفت كيف تخيط الشق بسيور جلدية رفيعة، بعد مضغها وتمريرها بين الأسنان بحيث يصبح مكان الرتق أكثر متانة من النسيج المحيط به. وهو صياد محترف خبير بنصب الفخاخ مثلي، لأن راحتي يديه كانتا مصبوغتين بعصارة غدد السمور المسكي والغزال القطبي. كما وهو آتٍ من الجنوب، لأن جلد أرنب بري، لا يزال مشوباً ببعض السمرة، قد علّق على حزامه، إذ أن البرد هناك أقل قساوة،

وتحسير[1] الحيوانات يتم في وقت أكثر تأخراً).

ـ أنا كاكاتسو. ـ قال.

كاكاتسو، الغراب، اسم مناسب لهذا الرجل صاحب الوجه المتعالي النحيف، الذي كان يفوقني طولاً ويشبه غراباً جاثماً يتربص بي. لقد سبق أن سمعت إسمه. لقد كان وحيداً مثلي.

ـ وأنا أشيني، قلتُ له.

ـ الصخرة، همس الرجل. نِعم الاسم ما أسموك.

إنني طويل القامة أيضاً، فأنا على نحو ما، أطول من أغلب رجال قبيلتي وإن كنتُ أقصر من كاكاتسو القادم. ولكنني عريض المنكبين، قوي الساعدين. كما أنني أتحلى بصلابة الصخور. أنا جدار يستشف به، وتتحطم عليه كل عزيمة.

رفعت يدي باسطاً راحتي، ففعل مثلي.

---

(1) ـ التحسير: تغيير لون فرو الحيوانات نحو الأبيض شتاءً، ونحو الأسمر صيفاً...

ثم عدنا ففرقنا في صمتنا.

تحرك القادم، بعد هنيهة، عندما هبت عصفة باردة صاعدة من بحيرة قريبة جارية بمحاذاة الأرض. مالت شعلة النار، فهمس كاكاتسو بشيء لم أفهمه.

ثم ردد في الحال:

- لقد دار الحديث عنك عند مفرق «ميكاتينا».

(متصلين عند المنبع، متجاورين في نصف المسافة، ينقسم نهرا «الميكاتينا» إلى قسمين على مسافة أربعة ايام من المصب. إن هذاالمفرق هو ملتقى المشردين الناطقين باللغة الجبلية واستراحتهم).

- كنت أرغب أن أمر به. ثم عدلت عن ذلك.

يبدو أن الحديث قد دار هناك عن وفاة ابني.

- ربما كنت أبحث عنك. قال كاكاتسو.

لقد تعدّى ما يريد البوح به.

- لقد أصبحت وحيداً، قلت له. مات ولداي. ماتت زوجتي.

ظل ممتنعاً، إذ ليس من اللائق إظهار الدهشة. هذا الجمود وهذا الهدوء تفرضهما أعراف سلالتنا.

(أقول لك هذا، كما ترى، لتعرف كل شيء عنّا. الآن وقد أصبحتُ بعيداً صعب المنال، أين ستتعلم ما هو كائن وما يجب أن يكون، وما هو غير كائن ولا يجب أن يكون، إن لم يكن في كتاب الدم هذا؟ أنت، على الأغلب، رجل أبيض يظن نفسه عالماً، وهو لم يتعلم قط العلم الوحيد المهم، وهو علم الحياة).

ـ أين ماتت؟

ـ عند بحيرة «نتسوك».

ـ تكتسب المرأة من القضاعة مرونتها ومهارتها ومرحها، قال كاكاتسو. وإنه لأمر حسن أن تموت زوجتك عند بحيرة «القضاعة».

ـ أجل.

تصاعد الدخان من النار في الهواء الذي سكن فجأة. والتفَّ كلولبٍ منحنٍ، دخاناً أسود فوق زرقة السماء الكثيفة، إزاء انعكاس نور القمر الطالع تواً، الذي يشكل طريقاً يجتاز البحيرة إلينا.

حشرة متأخرة، الأخيرة قبل حلول الجليد، كانت تطن

فوق الطحالب قريباً مني. بحثت عنها بيدي كي أسحقها، ثم أحجمت عن ذلك، فلماذا عليها أن تموت بينما أبقى أنا على قيد الحياة. ألن يكون بوسعها أن تبني ملجأ حيث تلبد منتظرة الربيع؟

أما أنا فلن يكون لدي ربيع. ليس لدي سوى آخر خطوة عاثرة انجزها خلال سنة، خلال عشر سنوات، لأسقط في أحد المنحدرات الموحشة.

وأموت متأملاً الأشجار.

وأموت متأملاً السماء.

وأوصي بجسدي ذي اللحم الطازج للحيوانات ذات الفراء لتكسب مهلة في العيش اضافية، ثم ليصطادها، في اللحظة المرجوة، رجل أصغر مني سناً ـ خليفتي في الوحدة ـ وليكسب هو الآخر مهلة إضافية في العيش.

هو ذا المنحى البطيء الدوري لنظام الطبيعة. أفي مقدورك أن تغير دافعاً واحداً منه؟ هل تستطيع أن تبدل مجراه؟

في بلاد **الصيد الوفير** حيث يذهب ذوو القلوب الطيبة،

والصيادون الماهرون، كائناتٌ الهية هي «المانيتو»، الآمرون، المسيطرون على الأشياء التي تحيط بنا، قادتنا الذين ننصاع لهم، إنهم وحدهم القادرون على تغيير مسار الكواكب ونمو النباتات.

ولكنهم نسوني منذ أمد طويل، ربما نسوا كيف يسيّرون العالم...

البيض الذين ابتكروا الهاً، هل ابتكروا «تشي مانيتو» الجبار العظيم بحيث يعلو على آلهتي المتواضعة التي تكتفي بالأصقاع المقفرة وتجهل قيادة المدن الكبرى؟

أو أنهم اخترعوا، بدلاً من «تشي مانيتو» الأقوى بعدالته، «ميتسي مينتو ) شيطاناً ذا جبروت قادراً على قيادة كل شيء بما في ذلك المدن والطائرات والبيض الذين تفوح منهم رائحة الويسكي، فما بالك بالمتشردين المنعزلين من أمثالي والهتهم الـ «مانيتو» المغلوبين.

بودي الايمان بشيء ما، ولكنني لا أستطيع العثور على من هو كامل، فائق، أفضل من الكل وأقوى من كل شيء.

لن أستطيع أن ابتدع لي الهة جديدة.

ـ والآن، ماذا ستفعل؟ سألني كاكاتسو.

(أدركتُ أنه بحث عني لسبب وحيد هو مساعدتي ان طلبت منه ذلك. أليس بهذه الطريقة نتمسك فيما بيننا بأقوى الروابط نحن أبناء السلالة الكبيرة؟ بأن لاندع أخانا يفقد الرجاء عبثاً. حتى إنه لم يكن يعرف أن زوجتي قد ماتت. كان يعرف أن آخر أبنائي، الباقي على قيد الحياة، قد مات غرقاً وحسب).

ـ لدي البلاد طولاً وعرضاً لأجوبها، قلت له، ـ سوف أتابع.

(أن تتابع، هذا مرام منطقي. فالعاصفة ترأف بمن يعرف النهوض والمتابعة، ويصبح البرد أقل قساوة، والوجع أقل إيلاماً والقدر أكثر سعداً. السقوط، طبعاً، فمن هو في مأمن منه، ثم النهوض، ثم المتابعة).

ـ ما فعلته دائماً، سأتابع فعله.

أشرت إلى المنطقة بحركة من ساعدي شاملاً كل شيء.

ـ ثمة لحم طازج أتغذى به، وأغصان أحتمي بها، وفراء أصطادها، وهواء نقي أتنشقه.

وجبال أتأملها، ونجوم أُعجب بها، وقمر تشريني بارد ابتهل إليه، وكل ما هو جيد وجميل ويحيط بنا ويهمنا، نكهة الريح، ورائحة الماء القراح، وأريج الصنوبر وموسيقى أصوات هذا البلد كلها.

الهجرة والبحث عن أي بلد آخر؟ وفي أية جغرافيا سوف تجد بلداً أكثر جلالاً واخضراراً وعافية؟

- سنتابع، استنتج كاكاتسو، هذا أمر جيد.

هو الهائم على وجهه وحيداً مثلي، كان يدرك جيداً أنه لمن الضَّعة أن تهجر كل شيء.

ثم واصل فكرته:

- بعد أن أصبح «تييرنيش» وحيداً، نزل صوب «بيتسياميتس». سيسكن عند أخته في المحمية. ذهب «بيكال» أيضاً إلى «بيتسياميتس» الآن وقد بدأ ابنه دراسة علوم البيض في المدينة. هذا ما سيُنقص اثنين من بيننا.

اثنين وضيعين.

«بيكال» رجل غريب الأطوار، قصير القامة جداً، ضعيف البنية، لم يعرف قط كيف يعثر على طريقه في الغابة،

كما لو أنه قد شُكب في عروقه بعضٌ من دم رديء لرجل أبيض جاهل...

«تييرنيش» أفضل كرجل، إلا أنه كان يبني لنفسه مخيماً من جذوع الأشجار المقطوعة بدلاً من بناء مأوى، وقد أفرغ الناحية من الطرائد، لسبب وحيد وهو تكاسله في الذهاب نحو منابع الأنهار، حيث الأماكن الضحلة، إذ كان يعد ذلك عملاً عديم الفائدة.

سيحتفون به في المحمية ويهنئونه كآخر الفارين. وسوف يمنحونه مأوىً، وراتباً ومالاً. وسوف يجعلون منه قدوة للأطفال.

«أترون هذا الرجل؟ إنه انسان لبيب وذكي. إنه لا يبقى في الغابة كي يعيش حياة بائسة. بل يأتي إلى هنا حيث سيكون البيض رفقاءَ به. هيا يا صغار، تعلموا الفرنسية، انسوا لغتكم، احتقروا الغابة. إننا نقدم لكم الجنة على الأرض. نقدم لكم شيئاً لا مثيل له، وهو أن نجعل منكم اناساً بيضاً!.. اليس هذا منتهى الصواب والسخاء؟»

«تييرنيش»، «بيكال»، زاد اثنان هناك، ونقص من هنا اثنان. والغابة التي فرغت عادت موطن الهدوء، عادت مملكة

العنيدين من أمثالي وأمثال «كاكاتسو» و«ميزيشو» و«وايستان»، آخر الباقين. هل نحن الآن اثنا عشر، أو عشرون؟.

لا أعرف.

كان ثمة العديد من السافلين، العديد من الخائنين، العديد من الفارين.

عوى ذئب، الصوت ـ الرمز، المبعد هو الأخر نحو الأشجار الصغيرة في الشمال، مدحوراً، منفياً، مهاناً...

مثلي أنا، مثلنا نحن.

«تعال يا صغيري لنجعل منك انساناً أبيض...»

بعد ذلك، نام «كاكاتسو» ونمت أنا متحلقين حول النار، حتى ظهور ندى الصباح الخريفي البارد.

ثم تابعنا سيرنا، في طريقين متعاكسين، ولكنهما متشابهان، فصرت، في منتصف ذاك النهار، وحيداً من جديد، بل أكثر وحدة مما تصورت، إذ نقص اثنان كان يمكن أن يقطعا دروبي المحتملة.

.....

سواء كان من أهل المنحدرات العالية، أو من سكان

الوديان المتعرجة، فالرجل الذي يقتفي الآثار مثلي، لا يخاف الوحدة إن لم يكن لديه قدرٌ آخر.

إن ما يخطف من الانسان آخر أشلاء فرحه هو أن يكون ثم لا يعود... لا يوجد علم أسهل من السير وحيداً على درب.

ولكن لا يوجد علم أكثر تعقيداً من أن تجوب وحيداً دروباً سار عليها آخرون معك سابقاً.

ها هنا تكمن وخزة وجعي الأولى وجذورها الأليمة. أية استغاثة اطلقها كي تُستجاب؟

عيناي المفتوحتان لم تكونا تريان سوى الأصقاع الخالية من الكائنات. وحاسة الشم عندي لم تكن تحس بأية رائحة عائلية. ويداي لم تكونا تقبضان سوى الأصداء الصامتة وقد صدتها الريح المدومة دون اتزان.

وملاذي الوحيد هو أن أغوص في داخلي بحثاً عن ذكرياتي.

ولكن لماذا لا استعيد سوى ذكرى احتضار الزوجة

البطيء والمضطرب والأليم أيضاً؟ وليس أيام الحب السابقة؟

لماذا لا استطيع أن أعيش ثانية المحاورات الهادئة على أطراف الأمسيات مع ابني الذي قتله سكير أبيض؟ ولماذا لا أستطيع أن أستعيد من الذكرى سوى الثقب البنفسجي على الظهر الأسمر، والدم فوق الأوراق الخضراء؟

ومن إبنتي، صورة وحيدة هي صورة هروبها، عندما غادرتنا دون أن تلتفت ودون أن تسمع شكواي؟

وأنا أجلس فوق طحالب حزيران الحمراء، مرّ أمام ناظري حادث موت ابني البكر. كنت قد تفحصت مكان موته. وبناء على العلائم كنت قد أعدت ترتيب المراحل كلها من أمد طويل.

لماذا لا أستطيع أن أتذكر اليوم رحلات صيدنا الصامتة والبليغة؟ كنا نحن الاثنين متماثلين نحافة وطولاً، ولا نختلف في المهارة عندما طاردنا أيلاً، وكنا نعلم وجوب تناول لحمه الطازج في المساء ذاته.

كان نداء هذا الأيل، النداء القادم فوق الرياح، المحمول

من واد لآخر، نداءً يائساً دون جدوى. صيحة شبيهة بذاك النداء مكبوتة مبحوحة أطلقتها اليوم مستذكراً ابني البكر الذي كان سيشرفني الشرف كله، وينال اعجابي كله.

في ذاك المساء، عشية غرقه، أوقد ابني أنطوان أشيني ناراً، وسلخ أرنباً اصطاده أثناء النهار وأعدّه لوجبته المسائية. ثم استسلم للنوم. ولكن الطقس تغير فجأة ابتداء من منتصف الليل. فقد صعد برد النهار القارس، صعوداً سريعاً نحو دفء منذر بالسوء.

ذاب الثلج، عند الفجر، وسالت المياه في كل مكان على امتداد الأرض. ثم تحطم جليد السيل دفعة واحدة، وتدفقت المياه من المرتفعات كتلة هائلة انهالت على الأرض المنخفضة. حاول انطوان، وقد استيقظ، الهرب، ولكن الوقت كان جد متأخراً، فأدركته المياه وجرفته صوب البحيرة. كانت معركة لم يواجه مثلها قط، حاول بقوة عضلاته كلها، بفطرته لا بتفكيره، حاول أن يصمد في وجه تلك القوة التي جرفته كما تجرف قشة. متقوساً مكافحاً بساعديه وبساقيه، متشبثاً بكل النتوءات على طريقه، غير أن المياه كانت أقوى. مطحوناً مرضوضاً انجرف نحو البحيرة، ليجد نفسه فجأة في الظلام

وكتلة هائلة تضغط على صدره. ضاق نفسه، ابتلع ماءً، وكان كلما قاوم أكثر اصطدم بشيء ما. طبقةٌ سميكةٌ، سقفٌ يحبسه ويمنعه من الخروج.

وبغته أدرك. فلقد جرفه السيل إلى البحيرة ورماه تحت الجليد. وكان عليه، كي ينقذ نفسه، أن يتصرف بسرعة. فكر في البحث عن مكان يكون الجليد فيه مكسوراً، ولكنه عدل عن ذلك في الحال. لم يكن يعرف في أي اتجاه يعوم. كان يجازف، إن أخطأ، أن يتوغل باتجاه وسط البحيرة أكثر فأكثر، إذ سيكون هذا موتاً محتماً، لقد مرت هذه الأفكار برأسه مرور البرق.

وفطن في الحال، بأن الجليد فوق البحيرة لم يكن سميكاً بما فيه الكفاية كي يتحمل عبء انسان، فاستل مديته من غمدها، ثم استند باحدى يديه على السطح الجليدي فوق رأسه وأخذ يضرب باليد الثانية ضربات قوية. ولكنه لم يفتت من الحاجز شيئاً يذكر. وزنّ على ساقه ذكرّه بأنه قد نام ورأسه في غمدها. فترك، بحركة سريعة المدية غير المجدية، تسقط في أعماق المياة.

باستخدامه الأداة الجديدة حصل على نتائج أفضل. فلقد تكسر الجليد شيئاً فشيئاً. وقد أوشكت رئتاه على

الانفجار، ورأسه يعج بالأزيز، فتح انطوان في البداية ثغرة كبيرة بحجم اليد، ثم وسعها بحيث تكفي لاخراج رأسه وأسرع يتنفس من خلال هذه الثغرة. لقد أنقذ. ثم غاص ثانية، ولما كان سباحاً ماهراً، لم يجد أية صعوبة في توسيع الثغرة لتصبح سالكة وظلت مشكلة واحدة، هي مشكلة الجليد الشديد الرقة. إلا أنه نجح، مع ذلك، في الخروج من تحت الماء. ثم استلقى مضطجعاً، وترك جسده ينزلق، حريصاً علىأن لا يسبب أي ارتجاج لذاك السطح المتزعزع. واستطاع، علىهذا النحو، أن يبلغ الشاطئ تقريباً، حيث كان الماء ضحلاً، فوقف على رجليه، ثم أنهى جولته، سائراً بخطىواسعة منغرزاً في الجليد الهش حتى وصل الرمل. عندما بلغ الشاطئ تهالك على الأرض، منهكاً، وفقد وعيه.

غير أن الطقس تغير ثانية. فلقد أعقب اللحظة الدافئة بردٌ قارس. عندما أفاق أنطوان كان يرتعد وقد استبدت الرعشة بكل جسده. استطاع أن يصعد، بمشقة، صوب مخيمه الليلي. كان ما يزل هناك بعض من الحطب الجاف كان قد أخفاه تحت الدغل. فأوقد ناراً بسرعة للتخلص من البرد الذي تملكه. إلا أن يديه كانتا ترتعشان رعشة جعلته يبدد

معظم عيدان الثقاب في العلبة الكتيمة، قبل أن يفلح في اشعال الحطب.

متهالكاً يكاد يلتصق بالنار الحديثة، حاول أن يصيب بعضاً من الدفء. ولكنه عبثاً كوّم الأغصان اليابسة، وعبثاً حاول الاقتراب أكثر من النار المستعرة، فلم تفارقه الرعشة أبداً، وظلت أسنانه تصطك في فمه. كان لاشك سيخلع ثيابه المبللة لو كان لديه أية غيارات. زحف، وهو أقرب إلى الموت منه للحياة، حتى بلغ احتياطي الحطب الجاف. ولكن النار التي زادت اشتعالاً لم تسعفه بشيء. كان يشعر برأسه حاراً. وكان يتنفس بصعوبة. ثم سرعان ما راح يحشرج. فاستلقى حينئذ، متكسراً، متكوراً على نفسه إزاء الاتون، ثم غاب عن وعيه من جديد.

صرخ في نومه وهذى، وأمضى ساعات رهيبة، ولكن أحداً لم يسمع صراخه ولا أنينه، فخمدت النار أخيراً، وظل البرد وحده، ثِقْلاً مشؤوماً، يضغط على أنطوان.

وجدناه، بعد يومين. كانت ملامحه، وهو ميت، متجهمة كوجه انسان هالك.

# 3

سنة ولادتي، بالاضافة إلى عودة القنافذ الراحلة منذ خمس سنوات، كانت ثمة هجرة للسمور المسكي الأسمر، وتفاءل أبي خيراً.

- جئتَ إلينا على الرحب والسعة، كنت رسولاً من أجل الصيد الوفير، قال لي أبي ذلك عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، عمر الأيل الكندي الأول.

سرعان ما عرفت بأنني لم انحدر من سلالة آلهة ما، لأنني كنت أعاني من البرد مثل الآخرين، وكان دمي، إذا جُرحت، يسيل أحمر لا أبيض نقياً شأن دم الآلهة «مانيتو».

وإذا ما افتخرت، ذات يوم، بسلالتي المزعومة السامية، فقد توجب عليّ أن أقلع عن ذلك بسرعة. إذ كنت أنا أيضاً واحداً من الجبليين خاضعاً، مثل من هم قبلي، للبيض.

ولكنني ظننت نفسي، على أطراف غابتي القصية، حراً مدة طويلة، حتى اتخذ خضوعي شكل دلالة خاطئة.

كنت على وشك أن أصبح رجلاً، عندما عرفت الحقيقة.

- ينبغي عليك، لقنني أبي درساً، أن لا تذهب للصيد حيث جبل «أوابيلو» - جبل الحجل الأبيض - ينتصب قبالة كبرى البحيرات. إن قمة هذا الجبل هي موطن **الصيد الوفير**، حيث لا يذهب سوى الأموات المختارين. غربي البحيرة منطقة البيض حيث يُحظّر صيد السلمون النهري على الناس من سلالتك، وحيث لا يملك فراء الأجمة سوى البيض، وحيث إذا اصطدت لن تظل هندياً، إنما تصير رجلاً أبيض. أتريد أن تصبح رجلاً أبيض؟

حتى في ذاك الزمن لم أكن أجيب عن مثل تلك الأسئلة. فللكلام فوائد أكثر منطقية من تلك.

أصير أبيض، أنا؟

أنا، أشيني، القاسي كالحجر، ابن أوابيكو، البوم الأبيض الذي يجيد التحليق فوق الغابات كسحابة ربيعية؟

خارج هذه التخوم (لقد ظل هذا البلد، على الرغم من ذلك، كبيراً كأكبر البلدان التي يمكن أن تجوبها سيداً كريماً) لم أقابل البيض إلا في أوقات المقايضات. الأوقات العصيبة التي كنت أخرج منها دائماً ذليلاً خائباً محروماً.

ولكنني لن أجعل من ذلك موضوع هذا الكتاب، الكتاب الوحيد الذي سيكتب يوماً ما عن سلالتي الميتة، التي لا يعرف انسان، في الحقيقة شيئاً عن وجودها ولا عن كبريائها.

لقد ترعرعت حراً. ولكن حريتي كانت كحرية طير في قفص. ثمة أقفاص يستطيع الطير فيها أن يحتفظ في داخله بوهم السماء الواسعة والغطسات اللامتناهية. وثمة أيضاً أقفاص ضيقة مثل السجون.

عشت في قفص كبير. قفص واسع من أجل صقر حر كُنْتُه، ولكنني كنت أخدع نفسي بأنني كنت حراً. فهل كان بوسعي أن أجدف القارب كما أشاء من رمال «ناتاشكوان» حتى قرب منابع النهر؟ هل كنت حراً في اصطياد اللحم الطازج، والسمك كما أريد، وفي أن أرسو على السواحل التي

تعجبني؟

أم أنني سوف أجد على ضفاف هذا النهر، الذي كان يشكل طريقي الملكي، مدن البيض كلها، وشرائع البيض وحواجزهم وقيودهم؟ هل كنت لا أزال فوق مجرى الماء هذا، الملك الزائر مملكته؟

ألن أسمع في كل منعطف، وعند الاقتراب من أي مرفأ، وأثناء كل صيد ضروري، ذات الصيحة التي بتنا نعرفها الآن جيداً:

«هيا اغرب أيها الهمجي اللعين!»

توجد لغات نقية يفسدها الاستعمال في المستوطنات. إنني أفهم بأن الأمر يتعلق بانسجام ما. فالناس المنفيون الذين جعلوا من اللغة الأم عذوبة ومسرة، يملكون القلب الطيب والشفقة النزيهة.

أما الغاصبون والمتعصبون فلا يملكون سوى خشونة لغة مشوهة فاسدة.

«هيا اغرب أيها الهمجي اللعين!»

لا توجد قط لغة جميلة بوسعها أن تلفظ مثل هذه

الكلمات وتوجهها إلى أولئك الذين ظهروا، على امتداد آلاف السنين، بصورة الانسان ذي القوى الفطرية، الذين جابوا ـ اسياداً عطوفين ـ هذه الغابات، دون أن يبيدوا حيواناتها قط ودون أن يحرقوا أشجارها قط، ودون أن ينتهكوا حرمة المنحدرات المائية قط، أسياداً خيرين منسجمين مع الطبيعة، غير قادرين أن يخلُّوا بتوازنها.

لا توجد في لغتي، مهما بدا الأمر مدهشاً، كلمة تصرخ بها على الدخلاء: «هيا اغرب أيها الأبيض اللعين!» لربما كان ينبغي ابتكار هذه الكلمات قبل فوات الأوان؟

لم ابتكرها أنا ولا أخوتي ولا أبنائي أيضاً.

لقد عشنا إذن في قفصنا الواسع مكبوتين، متخيلين أنفسنا أحراراً.

لقد عشت كما عاش أمثالي جميعاً. كنت استمد حياتي من الغابة، وتزوجت فيها، وأنجبت فيها أطفالاً. وسرنا في أثر الحيوانات المهاجرة، وفي أعقاب الفيضانات الموسمية، وفق مشيئة الشمس والثلج والرياح، لنبلغ أخيراً النهاية المستحقة لكل واحد منا.

# 4

هل بإمكاني أن أقول حقاً، متى خطرت الفكرة الكبيرة على بالي؟

لا أرى سوى تأثير وحدتي التي جعلتني، منذ حلولها، أغوص في أعماقي بحثاً عن عشرة انسانية. وحيداً على درويي، بعيداً عن أي حوار، لم أجد من أسأله سواي، وما اسمعه سوى أجوبتي.

هل حصل لي ذلك عندما شعرت بنفسي ملتزماً بمشروع تافه، وهو العيش وحيداً من بعد اليوم؟ من كنت؟ ولما كنت أنفع؟ لقد انجزت مهمتي طبعاً، فميا مضى، تزوجت، وأنجبت أطفالاً. ولكنني مازلت أملك قوة الرجال.

مازلت حيواناً انسانياً. ورشاقتي ما زالت توازي تلك التي كنت أتحلى بها يوم كنت في العشرين من عمري. وعضلاتي ما زالت قوية، لم أكن أملك من سني سوى الرقم.

ولكن لم تكن لدي أية رغبة في أن أبدأ من جديد، واعلم أنني لم أسافر، إلى جماعة حيث أجد نساء راغبات في مشاركتي أيامي القادمة.

ما كان يجب أن أفعله حسب المرامي الطبيعية، قد أنجزته، ولا أنوي أن أبدأ من جديد.

غير أن ألماً مبهماً كان يقض مضجعي: أن لا أكون منذوراً لأي عمل نافع. كنت أقتل لأقتات، وأصطاد حسب حاجتي. كنت أسير من رأس البحيرة حتى مكان انصبابها في النهر، ومن أسفل النهر حتى منبعه، ومن مصب السيل حتى أعلى منحدراته، ولكن لا لأية حاجة سوى الحركة المستمرة، والترحال دون هدف معين.

الآن، وقد أصبحت حراً، أحس وكأنني مسكون بكائنات، صامتة حتى الآن، توائمي على نحو ما، مُهمَلة منذ زمن طويل، كائنات تحثني على انجاز أمر كنت عاجزاً عن ادراكه.

وفجأة انبثق، ذات مساء، كل شيء أمامي كالبرق.

كان ثاني التشرينين قد حل. وكانت الغابة قد اتخذت مظهرها الشتائي منذ شهر تقريباً. كانت البحيرات متجمدة، والأنهار هادئة مروَّضة، وبدت أمواج السيول أقل لزوجة وأكثر بطأً.

كانت أرض الغابة مغطاة بطبقة سميكة من الثلج، وأشجار الصنوبر مثقلة بحمل أبيض تنوء به الأغصان.

ومن أجل النوم عرفت الآن طريق الدفء، إذ كان بوسعي أن انزوي داخل كتلة الحاجز الثلجي المعزولة، وأن أثبت مأوى منخفضاً من الأغصان، ثم أستمد من ناري كامل حرارتها.

كان ذلك أكثر مما هو في الخريف، أو في أثناء رطوبة الربيع العالية، كان زمن حياة هنية في الغابة.

فلم تكن هناك صعوبة في اقتفاء أثر الحيوانات، لأن الآثار كانت ترتسم جلية على الثلج. وكان الحيوان الجائع يقع في المصيدة دون جهد أو مراوغة.

أكان ذلك ثمرة الأمان، أن تمكنتُ هذا المساء من أن أدع الفكرة الكبيرة تتبلور جلية في راسي وتستحوذ عليّ فجأة؟

متدفئاً، في مأواي، بنار حامية صاخبة، كنت أتأمل

الليل الأبيض والأسود. كان البرد معتدلاً في الخارج، وكانت الأشجار ساكنة.

كان العالم برمته يبدو غارقاً في سبات عميق، وكان من الصعب أن تتخيل أن ثمة ماوراء الأفق مدناً كبيرة، كل الوطن الذي استعبده البيض، واخترقته الطرقات المعبدة، وغزته أجهزة التقدم.

أما هنا، فلم تكن سوى الطبيعة الساكنة والسماء المرصعة بنجوم لا تحصى.

وطني، وطن الجبليين.

الجبليون؟

بما أنه لم يكن، في الحقيقة، وطنَ الجبليين، أياً كان الوهم الذي كنت أغذيه في نفسي، وبما أن هذه «الأونغاثا» وهذا «اللابرادور» وهذا «الساحل الشمالي» وشبه الجزيرة الواسعة مثل مملكة، لا تخص سوى البيض الذين قد بدأوا استغلالها وفق مشيئتهم، بعد أن أبعدوني وبقية المتشردين من أمثالي إلى ما وراء نهر «بانتيكوت»، وما وراء نهر «البط البري»، بل أبعدمن ذلك، إن كان الأمر كذلك فلماذا لا أصبح محرراً؟

وآمراً لقدر جديد لجماعتي؟

هل ذهب أحد يطالب، بكل فخر واعتزاز، بحق الجبليين في الحياة كما يشاؤون؟

لم أنم في تلك الليلة. فتشت في ثنايا ذاكرتي كلها، فحصت جميع ذكرياتي. هل سمعت من معاصريّ، أو ممن يكبرني سناً أن ثمة واحداً فقط من بيننا قد ذهب يدافع عن قضيتنا لدى البيض؟

بوسعي أن أسمي، على وجه التقريب، جميع الجبليين ساكني «الأونغاثا». كنت أعرف تاريخ كل من بقي في الغابة، وتاريخ كل الآخرين تقريباً الذين يشرفون على الزوال في المحميات. ترى من منهم اتخذ من حقوقنا وميراثنا حجته؟

(كم من الكلمات سمعتها في مناسبات كنت أذهب فيها إلى السواحل وإلى قرى البيض، وكم من خطب سياسية تحدث فيها هؤلاء البيض عن ميراثهم وعن لغتهم وتقاليدهم وجذورهم التي غرزوها على ضفتي «سان لوران» (أبو المياه)... ولكن دون ذكر أي شيء يخص تراثنا نحن، تراث آلاف السنين الذي لا يعترفون لنا به).

تغلغل ذلك إلى داخلي واستقر وتأقلم.

لا أذكر أبداً بأن أحداً رافع في القضاء من أجل اعادة

حقوقنا. لم يتم انجاز شيء، ولا أحد قاد حملة التحرير.

أنا وحدي.

ثم في صيغة سؤال. أنا وحدي؟ أكان ذلك عملاً اختاره لي القدر؟

أيمكن أن يكون الاله «تشي مانيتو»، الذي خرج عن صمته قدامي كي يرسم طريقاً لسيري؟...

لقد اتخذت قراري في هذا المساء الشتائي على شاطئ بحيرة «أونيكابو». سوف أبدأ رحلة طويلة نحو المحميات. سوف أذهب مدافعاً عن قضيتي وقضية بني قومي.

لقد دب فيّ الحماس، إنها لفرحة كبيرة أن تستحضر كل هذه البدائع وقد أُنجزت. سوف أحصل من البيض على موافقة بتسليمنا كل المناطق الواقعة ما بين بحيرة «أتيكوناك» وشلالات «هاملتون». وسيكون ذلك كافياً لشعبي برمته!

بعد ذلك سأبدأ بحملة التبشير، كالمسيح الذي يتحدث عنه البيض، في القرى وفي المحميات، وعند كل مجموعة من جماعتي كانت قد انضمت إلى الخصم. سأكشف لهم عن

الوطن الحر، وطنهم هم الذي لن يمس أبداً من أحد سوى المنحدرين من سلالة «أبيناكيز» العظيمة.

وسأعيد إلى هذه النواحي كامل الأسر التي ستستقر، فيما بعد، في كل منعطف من منعطفات الوادي، وعلى كل طرف من أطراف البحيرة، وعلى ضفتي النهر حيث تنمو الأعشاب الطيبة العطرة.

وسيتصاعد، من كل جهة، النشيد الانساني في الأصقاع التي سأحررها كي تصبح ملكاً لنا.

ليسكن البيض في أسفل النهر وعلى طول ضفتيه، وليحتلوا شبه الجزر، والسهول الخصبة والغابات الخضراء! أما في غاباتنا السليمة الجافة فسنكون نحن الأسياد. ولن يأتي البيض إليها ليسرقوا لا المعادن ولا منحدرات المياه. سيتركون لنا صيد الأنهار وكذلك صيد الأجمات، سيتركون لنا الأشجار، بل أصغر الورود وأجملها.

لن تكون ثمار عنبية أو أعشاب طرية أو جذور علاجية إلا وتزيد ممتلكاتنا غنىً.

طير السماء والحشرة والدابة والسمكة والصنوبرة السوداء والزنبقة الخجولة والزعتر والعرعر، وكل حصاة وكل نقطة ماء وكل نسمة هواء وكل قطرة ندى، كل ذلك سيصبح ملكاً لنا.

وكذلك الحق الذي لا يقبل الجدل في الاحتفاظ بذلك مدى الدهر.

فيما يخصني، لم أكن أرغب في شيء سوى السير، كما أشاء، على أرضنا المستعادة.

أما من أجل قبيلتي فكنت أرغب في الدم المسترد وفي الكرامة المسترجعة.

أكان هذا حديث رجل مختل العقل؟

لم أكن أعلم أن قانون العادلين لم يصوَّت عليه بعد في البلدان المتحضرة على الأرض.

علينا، نحن البدائيين، همجيي الكرة الأرضية أن نوفر، دون سوانا، تحقيق العدالة.

وهذا، كما يبدو، أكبر عثراتنا التاريخية.

# 5

في ذلك الحين، لم تقلقني معرفة كيفية الدفاع عن قضيتي عند الاقتضاء. هل كنت احتاج أن أجهّز وضعها القانوني، أو أن أعدّد حجج التوازن، أو أن أكدس أوراق الملف؟

كنت أطالب بأن تعاد، إلى من سُرقت منه، لا البلاد بأسرها، فهذا مطلب غير منطقي على الرغم من عدالته، ولا الأرض المستعمرة، إنما الغابة التي هي لي كي تصبح ملكاً للجميع. منطقةً لم يؤمها إنسان أبيض بعد، بحثاً عن الثروات.

قصارى القول، منطقة مقفرة لا تصلح لشيء وبوسعها أن تنفع بني قومي.

وما أصغرها جغرافياً...

ما المانع أن أرغب في تقديم مطاليبي إلى أعلى المراكز المسؤولة؟ إلى **زعيم البيض الأكبر**، الشخص الوحيد الذي أقبل بمناقشته؟

إذ أن مطالبتي بحقوق شعب تجعل مني زعيماً. لم أكن أرغب في أي تكريم، ولن أوافق أبداً على أن أحكم القبيلة التي سيعاد تشكيلها. ولكنني في أثناء المباحثات سأكون الزعيم، وبالتالي كان لي حق التفاوض مع زعيم.

وهذا الزعيم، كنت أعرف اسمه ووضعه ومكان إقامته على ضفاف نهر «واتاوا» العريق، النهر الذي كان يحمل، فيما مضى، «الاغنييز» إلى بلادهم بعد رحلة صيدهم في الأقاليم الشمالية.

إنه الشخص الوحيد الذي سوف أجابهه، وهو الوحيد الذي كان بوسعه أن يأمر بالاستجابة لمطلبي.

لم أكن أتخيل حواجز اللغة. كنت أعرف أنّ ثمة بين البيض مترجمين يتقنون ترجمة مصطلحاتنا ليدرك البيض مغزاها.

ومقابل لغة البيض الفقيرة سأقدم جزالة لغتي الجبلية. لغة موزونة، متوهجة هامسة كحفيف أوراق الشجر. وكأكثر أبناء قومي تواضعاً، فقد امتلكت في داخلي الجزالة من هذه اللغة

المحفوظة، مع ذلك، دون معلم، لأنها تنسجم مع أبسط الأشياء.

وهذه الأشياء هي، بحد ذاتها، شديدة التنوع والجمال والفتنة، بحيث تصير الكلمات التي تعبر عنها لحناً وارتواءً.

أتريد أن أقول لك كيف هي هذه اللغة؟

انظر إلى الجبل، إنه يسمى «أوتسو»... ولكن إلفظ ذلك بطريقة شينية، الأصوات لا تكاد تسمع والشفتان نصف مفتوحتين.

وإذا كان جبل «أوتسو» متصلاً بجبال أخرى مشكلاً بذلك سلسلة جبال فهذا يسمى «ناتيكام». كلمة لكل شيء، ولكل شيء كلمة مختلفة عن الأخرى، كلمة واحدة فقط وليست جملاً مجمّعة من لغاتك الفقيرة.

الرمل، «ليكو». والصخرة البارزة في الماء «تشيسيكاتس»، ولكن الصخرة العادية كالصخرة المنتصبة في الغابة فهي «أشيني»، الصخر، اسمي أنا.

ماء الجدول، «شيبيس»، والماء الأبيض للسيل المتغطرس «باوشتوك». أمواج البحيرة، والماء الأزرق والقراح، «ي ميكيتس»، أيام الضباب، «كيشكوم»، وعندما تهدأ العاصفة، ويظهر قوس قزح، «أويكو ليبيشاكن»، وإذا امتد قوس قزح من

أفق لآخر، «اليبيشاكن شينيتو».

بوسعي، على هذاالنحو، أن أعلمك مطولاً العديد من الكلمات، وأن أبرهن لك أنك إذا كنت مضطراً أن تضيف اسم صاحب القلب للتعبير مثلاً عن قلب البقرة أو قلب الثعلب أو قلب الانسان أو قلب البومة، فأنا في لغتي لدي كلمة تعبر عن كل قلب من تلك القلوب، وغالباً تستطيع كلمتان التعبير عن الشيء الواقعي ولا واقعية الشيء كل بطريقتها.

انسجام ما بين المفردات وبين الحياة اليومية، ولأن حياتنا في الطبيعة الشاسعة غنية وعظيمة فالمفردات أيضاً عظيمة.

بإمكاني إذن أن أحكي قصتي وأدهش الجاهل الذي لا يقر أن بوسعي فعل ذلك بكلمات أغنى من كلماته.

أكرر لك، بوسعي أن أقول بلغتي أكثر مما يستطيع الزعيم الأكبر أن يجيبني بلغته الانكليزية الجافة والباردة بمئة مرة.

كنت مجهزاً أفضل مما قد يُعتقد، فرحلت نحو سواحل البحر، نحو «بيتسياميتس» حيث كنت آمل أن أجد أذناً صاغية.

.....

تنقلت، بعض الوقت، على نهر «بيكاباك» حاملاً قاربي، ثم من خلال ممر عرضي بلغت الهلال الذي يشكله نهر «مانيكوآغان» عند مصبه. أخفيت القارب عند الساحل، وسرت مشياً عبر الغابات متحاشياً أطرافها خلف قرى البيض حتى بلغت «بيتسياميتس».

في «بيتسياميتس» بحثت عن «بيكال» فوجدته.

«بيكال» النحيف، حمّال الأسية، ذي الوجه الشاحب والنظرة التي لم تعرف الأشياء الجميلة (إن هذه العلة هي، باعتقادي، ما دفعته إلى الهرب من المناطق الوحيدة الملائمة لسلالتنا، واللجوء إلى هذه القرية من المحميات).

استقبلني في منزله، لأنه يملك الآن منزلاً شأن السواد الأعظم من البيض. منزلاً كئيباً، عالياً، هرمي السقف، رمادياً بائساً.

كانت عتبة الباب متآكلة بمرور ألف عابر، اهتراءٌ عُمْرُهُ ثلاثون سنة. كم واحداً كان بإمكانه أن يطأ، باعتزاز، الأرض الحرة، بدلاً من هذاالخشب الشائن، رمز العبودية؟ وكل من اجتاز هذاالباب، بطيبة خاطر، ألم يدخل سجناً أقامه البيض؟

«ستكون لكم بيوتٌ..»

فهرعت القبيلة. هل عليّ أن ألوم جماعتي؟ قليلاً،

لأنهم تغلغلوا في هذه التخوم طواعية، على الأقل ليس بواسطة سلاح القوة، لم يقيدهم أحد بأغلال معقودة. لم تُرفع أية بندقية، وكان رعاة البقر يبتسمون.

مع ذلك فإن هناك أسلحة للبيض أسوأ من البنادق. يمكنك أن تحمي نفسك من بندقية، وتعتق نفسك من القيود الحديدية. بوسعك أن ترد على القوة بالقوة.

ولكن ماذا بوسعك أن تفعل أمام كلمات يلفظونها ـ سلاحاً بحد ذاته، وعوداً وضمانات وصوراً ـ يجعلونها تتلألأ أمامك.

«ستكون لكم بيوت، وشوارع، ستنتخبون مجلساً للقبيلة، وستحكمون أنفسكم بأنفسكم. سنمنحكم أرضاً تصطادون فيها كما يملي عليكم هواكم سيُمنع البيض من دخولها. ستكونون سادة أنفسكم. ولن تعانوا من شيء، شريطة أن توافقوا على التوقيع هنا، في أسفل معاهدة الوفاق هذه...»

وضع، يومذاك، قصيرو النظر من أبناء ذريتي، صليب جهلهم في أسفل الرق.

بماذا ضحوا، ولقاء أي ثمن؟

تنازلوا للبيض عن أرضهم الأكثر خصوبة، وغاباتهم الغنية بالصيد، وتخلوا عن كل حق، ولن يكون بإمكانهم حتى التصويت في انتخابات البيض.

وما الذي حصلوا عليه بالمقابل؟ على منازل؟ لابأس، ولكنني أعرف ملاجئ مشيدة من أغصان هي كالقصور، لأنني أرى من خلال جنبها المشرع الجبال البكر والمياه النقية...

كما أعرف تلك الملاجئ بموادها البسيطة المريحة، الملاجئ المهدمة عند الفجر والمشيدة ثانية على مسافة يوم في مكان لا يزال الماء فيه نقياً والجبل شامخاً.

من خلال أبواب منازلهم، ماذا يشاهد أناس المحميات؟ سوى الفقر المشابه لفقرهم، والأسمال المشابهة لأسمالهم، سوى قذارة الانحلال، وكساح أطفالهم السيئي التغذية.

أينام، كل ليلة، تحت غطاء الأسقف الأمل في فجر جديد، أم أنه لا يوجد هنا سوى يقين الأيام المتماثلة بحزنها والمتماثلة برتابتها، والعقيمة والباطلة، والتي ستدوم من جيل لآخر حتى ينسى أناس الدم الذي أُفسدوا في المدارس، الأشياء القديمة، ويصبحوا بيضاً، ولا بد، مزيفين مدى الدهر؟

إنهم لا يملكون بعد الآن، حتى لغتهم المؤاسية والموزونة

التي هي ضرب من عوامات الانقاذ، وضرب من المنارات، حتى اللغة تزول لتحل محلها لغة البيض...

أنت يا صاحب البشرة الحمراء، هل سيكون لك مكان في مدينة البيض، أم أنك ستدحر بسبب لونك منبوذاً، كما يُنبذ، في مدن البيض كلها، السود والصفر والسمر؟

ماالذي أخذته من البيض مقابل حصولهم على كل شيء منك؟

إنهم، حتى في الرقعة التي وقعتها لهم، لم يضمنوا لك، الهواء الذي ستتنفسه في منحدراتك، والشمس التي ستدفئك، والمياه التي ستصير ملكاً لك.

على سبيل الدعابة، هل ستذهب طوال يوم كامل لتلعب دور الأبيض الحر في أحيائه الغنية؟

أية كف بيضاء بوسعك إظهارها دون أن تكون لها هذه الراحة الموسومة إلى الأبد بدمك وسلالتك؟ هل ثمة صبغة تجعلك أبيض البشرة، حتى ولو تحدثت بلغات العالم الراقي كلها، ومشيت، على الطريقة الانكليزية، فوق اسمنت

الأرصفة؟

لم يكن لدى «بيكال» سوى القليل ليقوله لي.

حقاً لم نكن أبداً أخوة في الدم. عندما كنت أقابله في الغابة لم نكن نجيد التحدث إلا قليلاً عن حالة الطقس في السماء وعن غنائم الصيد.

قدَّم لي في بيته، مقعداً ثم دخّنا معاً.

لم يؤكد لي سوى أمر واحد ذي قيمة. وكان عليّ أن أكتفي به. ففي «بيتسياميتس»، المحمية المدللة من كل الساحل، استلم الادارة مدير جديد.

ـ مدير، قال لي «بيكال»، يحب الهنود، وسيعمل كل شيء من أجلهم.

ـ كل شيء؟

ـ هذا ما يقوله هو.

عدت إلى الغابة ذاك المساء، ونمت في ملجأ قريب من أحد الجداول. كان عليّ أن أزن الكلام الذي سأقوله لهذا الرجل الذي لم يبدُ لي مستجيباً للتعابير نفسها التي ابتدعتها في الغابة، ما الذي سيحدث لتكهناتي؟

بدوري، راقبت حياة المحمية من خلال الباب المشرع

لمنزل «بيكال» فرأيت الخيبة، ولكنني رأيت أيضاً أن الناس يبدون متمسكين بهذه الخيبة.

لا أدري كيف يتراءى ذلك للعيان، قد أكون خمنت بالاستناد إلى مظهرهم المستسلم للأمر الواقع؟ مناكب منحنية لن تستقيم أبداً.

وعيون خالية من الرجاء.

هل يكفي أن أشير إلى الأراضي الحرة في الأعالي كي يتبعوني، الواحد تلو الآخر، على دروبي الضيقة؟

ولكن في الليل، عندما كانت ريح شمالية باردة تصفر كدفقة جليد قارس، حلمت بأعظم رجل من الجبليين الاسطوريين، من لا اسم له، ولكن من تجري في عروقه دماء الأبطال الذين تكرمهم أغانينا.

رأيته يسقط كشجرة محطمة، متدحرجاً على طول المنحدر، منزلقاً نحو هاوية سوداء ضاع فيها.

أعتقد أنني أدركت، منذ هذه اللحظة بأنّه عليّ، كي أجذب كل أولئك الخاملين والجبناء والفارين، عليّ أن أقترف عملاً بوسعه أن يسوط مابقي لديهم من كبرياء.

(عندما جابهتْ سلالة «أبيناكيز» العظيمة أعداءها فيما مضى، خاضت معارك طويلة امتدت شهوراً. ولكن العدو كان قوياً، كان يملك علوماً مصدرها بلاد الشمس العالية جنوب الأفق. فاستطاع أن يدحر أبناء قومي. من استطاع منهم أن يهرب ويعبر «أبو المياه» كان مهزوماً وليس جباناً. وإذا كانوا قد وجدوا في «أونغاقا» السلام والطمأنينة واللحم الطازج من أجل إطعام القبائل، فهل يحق لنا أن نلومهم لأنهم لم يسترجعوا بلداً يسكنه الغرباء حالياً؟ ليسوا جبناء بل عقلاء، لقد بدأوا الحياة من جديد من أجل أن يولد من سبقني، ولكي أولد أنا بدوري. كنت أريد ببساطة أن تستمر هذه السلالة وأن تُخلّد في وطنها الذي ضمن لها البقاء. أكان ذلك مطلباً تعجيزياً؟..).

رجعت، في الصباح، إلى المحمية. عبرت الطريق المعبدة حيث كانت شاحنات ضخمة تنقل الصخور. أي تمزيق آخر ابتكره البيض لتربتي؟

لقد شيدوا مدينة «سيت ابل»، وأقسروا الجبليين من هذا الخليج الهادئ على الرحيل إلى القرب من «موايزي».

وحيث لم يوجد سابقاً سوى هضبة صخرية، قيل أنهم

سوف يبنون ميناء اسمه «ميناء كارتييه». (أليس هذا هو اسم أول رجل أبيض جاء إلى هنا وتملق أجدادي ووعدهم بإله وملك؟).

في كل مكان، على طول الساحل الشمالي، فجر البيض الآن الجرانيت، وقطعوا الغابات وشوهوا الجبال. أي شيء لم يفعلوه من أجل الوصول إلى خامات الحديد والنحاس، ومن أجل ركوب الأنهار، وإيصال الكهرباء إلى الوحوش المتشددين في الأراضي الجنوبية؟

ومع ذلك، فهل أغفلت قصة مآثرهم المتغطرسة أن هذه المنشآت لم تكن سوى بيوت للنمل؟ وان هذه الشقوق لم تكن تساوي، بحجم حفرياتها، مجرى نهر «أونغافا» وحده؟ وأنه من علو الله ما كانت تُرى حتى المدن الجديدة والمناجم والطرقات والسدود؟

وها قد أبقت لي، المناطق الشاسعة من غابات لاتزال بكراً.

شيدوا مدنكم!

العبوا دور من أعاد بناء الجغرافيا!

مازال لدي ما يكفيني من الأرض، وما يسع أمتي بأسرها وينتشلها من العبودية إلى الأبد.

عثرت على منزل الأبيض بسهولة بالغة. كان منزلاً جديداً ونيِّراً. في حين كانت منازل الجبليين رمادية وقذرة.

ـ إنني أعرفك، قال لي، عندما قدَّمت له نفسي.

نظر إليَّ بفضول. سيكون من السهل أن أتكلم، لأنه سوف يصغي إليَّ.

ـ لقد جئت، قلت له، لأنني أطالب بحرية شعبي.

# 6

لقد احتوت المعاهدات على منافع وامتيازات ووعود وعلى أشياء أخرى أيضاً.

ونشر البيض، الذين كانوا يرغبون في شل قوات سكان كندا الأصليين، نشروا رسمياً، في اجتماع لهم، بأنه سيُمنح الحمر ما يسد حاجتهم، وسيُمنع عنهم بالتحديد ما سوف يمكّن البيض من أن يجوبوا المستعمرة ويستثمروها مدى الدهر.

ووضعوا حدوداً للأراضي، نادراً الأفضل منها، وقَبِل زعماء قبائلنا بذلك على أنه كرم من المنتصر.

تغاضوا عن انتخاب المجالس. ولدى العديد من القبائل سمحوا بديمومة السلالات الكبيرة.

وحددوا، على الخارطة، مناطق الصيد المحمية لبني

قومي. سواء كانوا من قبيلة «الجبليين» أو قبيلة «كري» أو من «الأقدام السوداء» أو قبيلة «شوشون». سواء كانوا يسكنون مناطق الغابات الصنوبرية أو السهول، أو قمم جبال «روشوز» الشديدة الانحدار، فلقد استلموا جميعاً حصة واحدة، وأصبح مصيرهم واحداً.

أمامن أجل من حلم من بيننا بأرض تخصه يطؤها بحرية، فلقد كانت حقيقة المعاهدة مريعة.

كان ذلك نوعاً من عبودية صريحة صيغت حيواتنا على أساسها. عبيداً لسادة جدد لا يطالبوننا بأي جهد، لكن يقيّدون كلّ أداة لصالح مستقبل هويتنا العرقية.

ثم مضى الوقت وأشرف قومي على الزوال في المحميات، لأن الوعود نُقِضت، والعهود غابت في طي النسيان.

وقد استطاعت قبيلةٌ هنا وأخرى هناك أن تنمو وتتكاثر مسترشدة بغريزة حب البقاء (كانت قبيلتي أقل بؤساً من قبائل «أوسكيلانوس»، وأقل شقاء من قبائل «ناسكابي». ).

أجازوا زعماء منتخبين، كانوا يجتمعون في مجلس

فائق الجدية من أجل التصويت على قرارات يرفض البيض البعيدون في «أوتاوا» الجاهلون مصلحة شعبي، الموافقة عليها.

استعين بك شاهداً، انظر إلى المدارس «الهندية». هذا اسم يبعث على السخرية. فالمدارس ليست هندية إلا بلون بشرة تلاميذها وأنسابهم واللغة الهندية لا تُدرس قط في هذه الصفوف. ولا التقاليد الهندية كذلك. (ألم تكن هناك مدرسة قريبة من مدنك الكبيرة، أيها الرجل الأبيض القليل الاهتمام، حيث مُنع على أطفال «موهيكان» التحدث بلغتهم الخاصة؟)

أقول لك هذا، كما أقول لك كل شيء آخر، غارقاً في العذاب ومجرداً من كبريائي. ثمة أيضاً كلمات لفظها مرّ، كلمات قاسية وحزينة.

ماذا يحل بشعب سُلبت منه لغته؟

إن شعبي الذي جُرد من لغته ومن أرضه، لم يثر أية شفقة. هل شعر الغزاة ببعض من تأنيب الضمير؟ ومع ذلك فقد كان جديراً بالثناء أن يُسمح هنا بنمو شعب ثالث من أصل آخر، ولغة مختلفة، قادر على اغناء البلد بتقاليده وحكمته وفطنته.

لمصلحتنا، قيل لنا، كان يتوجب علينا أن نتكيف.

كانت المحمية مرحلة انتقالية. كانت الخطة تكمن في استخدام الخدعة لفرض الأراء والمذاهب على الصغار، وجعلهم كائنات مزودة بلغة غريبة عنهم، ولكنها تسمح لهم، كما قيل، بالانصهار في الكنديين وفي البيض.

الانصهار، يعني أن تبلع شعباً حتى لايبقى منه شيء سوى ذكرى وأكاذيب مقيتة في كتب التاريخ.

الهنود القساة، الهنود المنافقون والمحتالون! تلك الكائنات التي وُصِفت بأنها نجسة لا لشيء سوى أنها أرادت الدفاع عن وطنها ضد غزو البيض.

على الأرض المسلوبة، أرض البيض أقاموا تماثيل من أحجار عالية على صورة المدافعين عن الأرض الكندية: دولار دي أرومو، وشيفاليه دو ليفي، وسالا بيري، ومونتكالم... (لست متحمساً لأولئك الناس، وأنا أُسميهم دون ترتيب ودون الاكتراث بالتواريخ أو بالانتصارات...)

لماذا لم يشيدوا تماثيل من حجر الصوان ذاته، تشابه تماثيل التكريم، للزعماء الهنود الذين ماتوا حاملين البنادق الفرنسية؟

هل كانوا أقل بسالة أو أقل وطنية؟

لماذا ينبغي أن يتحمل البشر، بسبب لون البشرة، نوعين من الأعباء وأن يشكلوا هدف نوعين من التدابير؟

نهضت، في جنون كبريائي، وفي عيني «ليڤيك» مدير المحمية قرأت الشفقة بدل الاعجاب، عندما قلت له بلغتي:

ـ لقد جئت لأنني أطالب بحرية شعبي.

ولا شيء سوى الشفقة.

انتظرت جوابه طويلاً.

دار أمامي دورة كاملة، ست خطوات جعلته يدور حول طاولة خفيضة ويرجع إلى حيث كان. كان وجهه جدياً هذه المرة.

ـ لقد تأخرت كثيراً.

ـ ليس كثيراً.

ـ إنني أوصي بالصبر، قال لي «ليڤيك».

أظن أنني ابتسمت.

ـ إنني وحيد الآن، تابعت.

ـ أعرف، لقد قالوا لي هذا.

ـ ومن أجل انقاذ شعبي، بوسعي التضحية بنفسي.

هزَّ رأسه.

ـ لك الحق، قال لي، في ان تفكر كما تشاء، غير أنهم قد لا يرغبون في حريتك...

مسَّ ذراعي. لم أتشنج. لأنه لم يكن كالآخرين من البيض. كان ذلك واضحاً من سلوكه ومن نبرة صوته. لم يأمرني بشيء، وعاملني معاملة الندِّ للندِّ. كان ينبغي أن يحتوي تاريخنا على أناس أكثر من هذا الطراز، وعلى أقل من أمثال محرري المعاهدات.

ـ اسمع، قال «ليفيك»، إنني أسعى إلى مساعدتكم. وأناهناحديث العهد في هذه الوظيفة. وقد احتجت إلى بعض الوقت لأراقب شعبك وأفهمه. إنه يختلف عن قبائل الـ«كري».

أيظن أنه يطلعني على تفوق سلالتي؟

ـ لقد أخذت على عاتقي مهمة مساعدتكم. بوسعك، إن رغبت، أن تعمل معي. هذا عائد لمشيئتك.

ـ لست أنت من أريد التباحث معه، قلت له. فما أطلبه لا تستطيع أنت ولا أمثالك أن تمنحوني إياه. وبما أنني أترأس القبائل، فهذا يعني بأنني أصبحت زعيمها. أبلغ زعيم البيض الأكبر في «أوتاوا» أنه يوجد هنا الزعيم «أشيني» الذي يرغب في

التباحث معه.

ثم أردفت ليصبح كل شيء واضحاً بيننا:

- إنني فقير بطاقاتي. فأنا لا أملك أية ثروة سوى غابة «أونغاڤا». في حين يتحكم زعيم البيض بطائرات سريعة كالتي تمر دائماً من فوق رأسي، عندما أكون في مناطقي. قل له أنني سأنتظره في منتصف الشهر القادم، عند أول منعطف كبير لنهر «ايرسيميس» إلى الأعلى من مصبه.

ثم خرجت على عجل.

فما ينبغي أن أظل قريباً من هذا الرجل. كنت أخشى احترامه، فمن المحتمل أن أقصّر في مهمتي، وأوافق معه على أن يحقنني بصبرٍ ما كنت راغباً فيه.

العِرق الأحمر كله رُوِّض بالصبر. وتحت ستار هذه الفضيلة، فضيلة المترددين، أُجبر شعبي على التذبذب إلى ليمين أو إلى الشمال. لدرجة أنه لا يعرف اليوم وصفة أخرى سوى وصفة الصبر التي كانت، مع ذلك، مهلكة بالنسبة إليه.

عدت إلى الغابة، وعلى مسافة ساعتين، سيراً على لأقدام، من قرية الهنود انتظرت أن تعطى لي اشارات.

# 7

أية تهديدات وجهوها إلى «تيبرنيش» ليرضى بالذهاب بحثاً عني في الغابة؟ هو من كان يفضل دفء البيت على عملية البحث في يوم بارد. بِمَ وعدوه؟

كان عالماً في مجال تعقب آثار الحيوانات. وكان يستطيع التوجه مباشرة صوب الطريدة. لقد أمضى ثلاث ساعات كي يهتدي إليّ. لولا خموله، فأي ساكن غابات رائع لكانه هذا الرجل ذو الهيئة البليدة والخرقاء!

ـ أحمل لك رسالة، قال لي.

باللغة الجبلية المكتوبة على ورقة بيضاء كان «تيبرنيش» يحملها تحت سترته، خطّ لي «ليثيك»:

«ما تطلبه هو مستحيل، تعال نتفاوض».

لم أكن أتوقع أكثر من ذلك. كان بوسع هذا الرجل أن يطردني، أو يسخر مني، بل كان بوسعه أن يذلني أمام القرية برمتها. لقد اختار التفاوض. وكان ذلك أول نصر.

وكان ذلك أيضاً ما توقعته بالضبط. حتى الكلمات المكتوبة كانت مسطورة وفق الترتيب الذي تخيلته.

هل سيعلم، يوماً، هؤلاء البيض الذين يتوهمون أنفسهم آلهة، أنه يرقد في روح بسيطة لجبلي مثلي دهاء وحيلة لم يخترعوا هم مثلهما قط؟

هل كان «ليڤيك» يتخيل بأنني آمل في النجاح بواسطة طلب واحد بسيط تقدم به رجل لرجل؟

لقد تعقبت السمور المسكي واصطدته، وتغلبت على الثعلب، وعشت معتمداً على ملكاتي في غابة بارعة في حماية حيواناتها. اكتسبت من الغابة علوماً استطيع اليوم أن أضعها في خدمة قراراتي.

علوماً تفوقت، تفوقاً كبيراً، على الفكر المنظم الممرَّن لرجل أبيض.

كان «ليڤيك» يعتقد أنه يلعب دور الخبير الاستراتيجي، ولم يكن يشك حتى بأنني كنت مخترع استراتيجيته.

إن طيبة القلب لا تمنح المهارة.

ليس مهماً أن يحبنا «ليڤيك»، وأن يكون طيباً معنا. لقد كان مرؤوساً وأنا اعتزم التباحث مع الزعيم. كنت أدرك أمراً من بين أمور كثيرة ذات فائدة جمة. هل سيجازف زعيم البيض الأكبر بأن يريق ماء وجهه أمام شعبه؟

ومهما كنتُ مغموراً ونائياً وغير ذي أهمية، فقد كنت أملك قدرة وحيدة وهي بالتحديد أن أصيب ذاك المتسلط في صميم كبريائه.

عدت إلى لقاء «ليڤيك»، دون أن أدع الابتسامة التي كانت تشع في داخلي، تظهر على وجهي، عدت متظاهراً بأنني خدعت به.

استقبلني «ليڤيك» هذه المرة، في مكتبه وقدَّم لي مقعداً. كان يبدو جاداً، وكانت عيناه مرهقتين.

- إنني أدرك بأنك ترغب في مساعدة قومك، قال لي. لقد حكوا لي بأنك امرؤ ذو كبرياء، وأنك بقيت في الغابة باختيارك، وحكوا لي أيضاً بأنك أفضل من استطاع البقاء حياً من الجبليين.

أحنيت رأسي. فقد وُصِفْتُ وصفاً عادلاً.

ـ إلا أنك إذا كنت تريد مساعدة شعبك، عليك أن تكون أكثر واقعية، أنا لست وحيداً كما ترى. إنني مسؤول هنا إلى حد ما. أمّا في الواقع فأنا وكيل، وسيط بينكم جميعاً وبين «وزارة شؤون الهنود في أوتاوا». وفي كل مرة ممكنة أنحاز إليكم، وغالباً ما كنت أبدل تعليمات كنت أعتقدها ضارة بالنسبة إلى هنودي.

(لقد قال «هنودي»، ولم تفتني المودة في صوته، كنت ممتناً له، لأنه كان يضمر في قلبه أشياء أخرى غير الازدراء أو الكراهية. كنت أراه متواضعاً أمامي. ولكن ماذا كان بوسع ذلك أن يبدل؟ لقد قالها بذاته وبكلماته ودون أن أجبره على كشف نفسه: لم يكن هو المسؤول في الحقيقة. فمصير قومي كان يتقرر هناك، في بيت **زعيم البيض الأكبر** بمدينة «أوتاوا». وليس في أي مكان آخر.)

ـ ابلغ **زعيم البيض الأكبر** برغبتي في التباحث معه.

هزَّ «ليڤيك» رأسه.

ـ أشيني، أنت رجل ذكي، كما وُصفت. وطريقة استخدامك للغتك تثبت لي أنك قادر على التفكير والتبصر. حتى مشروعك فهو معقول بحد ذاته. إن **زعيم البيض الأكبر**،

كما تسميه أنت، رجل منشغل. لديه مشاكل كبيرة، لأن قيادة البيض أصعب جداً من قيادة الهنود. عليك أن تدرك جيداً بأنه لن يأتي أبداً إلى هنا، إلى غابة «أونغاثا» كي يتباحث معك.

مرة أخرى استطعت التنبؤ بكل كلمة في اجابته. ولكنه لم يكن يتوقع ذلك.

لم يبق أمامي إلا أن ألفظ العبارة الأخرى، العبارة الثانية في هذا الحديث الذي شرعت فيه.

ـ إذا لم يأت **زعيم البيض الأكبر** إليَّ فسيريق ماء وجهه، ولن يستطيع قط أن يبرر تصرفه أمام شعبه أو أمام شعبي.

نظر «ليڤيك» إليَّ. كان رجلاً نحيلاً عصبياً مازال شاباً يسبر أغوار الروح، إن جاز التعبير، ويتقن القراءة في أعماق الكائنات.

وهذا شيء نادر لدى البيض. إذ ليس بينهم سوى قلة تستطيع مواجهة الانسان.

ـ إنك تهدر وقتك، قال «ليڤيك» في النهاية. حتى لو أبلغت رسالتك إلى رئيس وزراء كندا، فلن يأخذها أحد مأخذ الجد.

خرجت للمرة الثانية، سلكت طريق الغابة ولكنني قبل الانصراف كررت على مسامع «اليفيك»:

- إن لم يأت زعيمك الأكبر إلى لقائي على ضفة نهر «بيرسيميس»، على مسافة يوم واحد بالزورق باتجاه أعلى النهر من «بيتسياميتس»، في منتصف الشهر القادم، حين يكون القمر بدراً، سأفعل ما ينبغي أن أفعله.

ولأن شهراً من الانتظار كان أمامي، فلقد حملت قاربي حتى بلغت بحيرة «أونوكابو» حيث كانت لدي فخاخ منصوبة، وحيث أستطيع أن أستعيد منطقتي المألوفة.

# 8

إنني أتذكر اللحاء.

كان ذلك في زمن لم تردد الأصداء فيه سوى لغتنا. زمن الخطوات الحاسمة، حيث كان الرجال يفكرون حول النار.

زمن كانت للنسوة فيه حركات بطيئة، وكان انحناء أذرعهن ينسجم مع انحناء أشجار الصفصاف الكبيرة المائلة.

لم تكن هناك رائحة المازوت على الدروب.

والصوت الوحيد للسماء، كان قصف الرعد المدوي في الأفق أثناء أمسيات الصيف الحارة.

حينذاك كان اللحاء بالنسبة إلينا كالدم في العروق، وكجلد الأيل فوق أكتافنا.

لم يكن الأمر يحتاج سوى أن تنزع الكمية المطلوبة من اللحاء عن جذع البتولا.

وكنا نسافر وقتئذ فوق المياه العذبة في زوارقنا المصنوعة من الخشب المشوي والمغطاة باللحاء الأملس.

وكنا نأكل، يومئذ، في آنية من خشب البتولا، كانت النساء يعلّقنها فوق نار المساء بمحاذاة اللهب الأزرق.

وكنا نطبخ ونجري ونتسلق ونشرب بفضل اللحاء.

هل يوجد اليوم الكثير من الجبليين الذين يتذكرون زمن اللحاء؟ زمن الدخان الصمغي الذي كان ينساب فوق سطح البحيرة ويأتي لاستقبالنا عند عودتنا من الصيد.

(هناك، في الطرف الجاف لغابة الصنوبر المتوغلة في البحيرة، كانت أكواخ الهنود نقاطاً مضيئة في المساء الجديد).

هل تذكر، يا والدي، إنني كنت أحمل دلو اللحاء من الجدول الرقراق حتى أسفل خزان المياه؟ وإنني كنت صغيراً يومذاك، لكني كنت أثق بك؟ هل ستتذكر، يا والدي في وطنك «وطن الصيد الوفير» حيث كل الأشياء من كل هذا لم تعد ذات أهمية، هل ستتذكر زمن اللحاء، زمن النعيم؟

زمن الجلد المدبوغ بذات اللحاء مع ملمسه الرقيق؟

زمن القوس والسهم والرمح المصنوع من الخشب المقسى بالنار والمسلح بالأحجار الحادة؟

زمن الصيد المراوغ، يوم كانت أسحلة الحيوانات مساوية لأسلحتنا؟

هل تذكر يا والدي، وأنتم كل من لم يعد على قيد الحياة، هل تذكرون زمن اللحاء المبارك؟

وفاءً لذكرى سيول الدم الحي التي وجَّهَتْ أجيالنا من عصر لآخر، وأملاً بكل شيء جيد، قطعتُ عهداً أن يعود لكل واحد منا زمن اللحاء، ليس في واقعه الماضي، إنما في الروح ومن أجل تنظيم نشاطنا اليومي.

يجب على الفتيات الجبليات أن يتقن الغناء من فوق القمم، وأن تسيل أصواتهن على بشرتنا كدغدغة منعشة.

يجب على الفتيات الجبليات أن يأخذن المولود الجديد بأيديهن، ويقدمنه للدغل المعطاء، وللمياه الغنية بالأسماك،

وللسماء المشمسة، عليهن أن يعلنّ، في كل بقاع «المانيتو» امتنانهن، لأنهن المتابعات.

على الرجال من دمي، أن يعرفوا كيف يضعون يد الاحترام والشرف على الفراء اللامعة ليستمر في الحياة ـ في كل أجمة ـ المولودون الجدد، ولتكن الغابة المغذية غنية غداً وإلى أبد الآبدين.

ينبغي أن يكون زمن اللحاء الراجع، عودة لنا إلى الحياة الآمنة. فلتنته الخيبة، ولينته القلق، ولنكف عن الخوف من أي صوت آدمي في أرجائنا. وليصبح هذا الزمن، من جديد، زمن الحب، إذ لم يكتب للانسان إلا هذا الزمن الذي خُلق من أجل الانسان، وهو هدية له على الأرض.

فليعرف الرجال كيف يحبون ولتزدد النساء حباً. وليتذكروا زمن اللحاء، وليلقنوا الفتيات درساً بأنه لا يوجد لحن أسمى من لحن الحب ولا صوت أعمق وأجمل من صوت الحب.

وليلقنوا رجالنا عذوبة الديمومة المنجزة بأمان في بلد السرمدية.

.....

استعدت منطقتي حول بحيرة «أونوكابو».

وبدأت حياتي من جديد.

لن أتحدث عنها في تفاصيلها اليومية. فهذه هي حياتي كما عشتها دائماً، التي لن يستطيع أن يؤثر على ايقاعها لا وحدتي ولا مشروعي ولا العمل الذي سيتوجب انجازه عندما يؤون الأوان.

استرجعت ببساطة شديدة، عاداتي كلها في غابة «أونغاڤا»، في هذه المقاطعة التي أمست، على نحو ما، مكاناً للسكن، أمست مملكة.

كانت غابة مؤلفة من أشجار صنوبر كبيرة سوداء، وأشجار شوح أقل طولاً ولكن ليس أقل عافية، وأشجار ذات خشب قاس وأخرى ذات خشب طري منتشرة بين الصنوبريات. غابة شتاء يسهل الصيد فيها، وغابة صيف رائعة الثراء. غابة تفيض أرضها بالياسمين البري والزعرور والتوت البري وتوت العليق. وفي كل مكان كان الأرز الزاحف يشكل مخابئ ممتازة للأرانب البرية. وكانت هذه الأدغال المنخفضة مرتعاً للثعلب والغزال والقضاعة بل حتى للسمور. وفي خليج قليل العمق ولكن واسع طويل، على الجانب الآخر

من البحيرة، استوطنت مجموعة من الجرذان المسكية لا تقل عن مئتي رأس. كان ثمة براز ذئب على درب الدب، وآثار حوافر الأيل على الرمل في كل مكان، وآثار تخريب المعز الوحشي على جوانب فسحات الغابة الأربع حول البحيرة.

ولم تكن نادرة كذلك أعشاش الطيور المغردة التي كانت تجذب الخز ذا الفراء النفيسة. وفي كل مكان فوق مسالك الأرض الرطبة، كانت ثمة آثار للحجل ودجاج الماء.

هل كان على هذا الشكل أول عالم أعطاه الاله «تشي» للانسان؟ هل كنت قد كشفت المقاطعة المثالية لاصطحاب قبيلتي إليها؟ أرضٌ بدت لي خيّرة، فهل من المثير للعجب ان رغبت في أن يشاركني الآخرون فيها؟

لم أحاول، مع ذلك، أن أفكر بوطني تفكيراً عميقاً. كان من المهم أن أظل متعلقاً بكل حركة لكل يوم. وأن لا أنتظر، بعد الآن، أي شيء من هذه المقاطعة، وأن لا أحلم بأية أفراح قد توفرها لي.

لقد اخترت مصيراً، وما من شيء كان بوسعه أن يحملني على الندم العديم الفائدة؟.

في شهر آيار القادم، قد لا أسمع تفجر جليد البحيرات المتكسر تحت وطأة النهار. وقد أنتهي من زمن الرجال، ولن يشغل بالي بعد اليوم، الحج الطويل لأراضي الجبليين الفارين المجدبة.

ولكن أليس عليّ أن أواجه أي تقدير منطقي بقدر أكبر من الحتمية؟

نصبت فخاخي حيث ستوقع بالطرائد ذات الفراء، قمت بذلك ببساطة، غريزياً متصرفاً كما كنت أتصرف كل يوم باسم الحياة المستمرة.

أعتقد أن تنازلي الوحيد أمام التنظيم الجديد لمصيري، كان أن أنجز، بعد عودتي، عملية السلخ الأولى مصحوبة ببعض الشعائر.

ثمة طقوس تقام في كل مرحلة من مراحل الحياة. عندما يلد الطفل، تهرب أمه، سراً، عقب أول ليلة من مجيئه إلى العالم، وتحمل الطفل الجديد نحو إحدى القمم. هناك،

تعلقه على شجرة، ثم ترقص ببطء طوال الليل حول هذه الشجرة. وتنزع بيدها من «أنتشيشكيلنوي» ـ المولود الجديد ـ بحركات متمهلة ورقيقة، كل الألم والمساوئ، وكل المصائر القاسية، ثم بالحركة ذاتها ترمي بهذه المخاطر إلى أبعد مكان في أسفل الجبل، لتقبض أرواح الليل عليها وتقهرها.

ثم تؤلف، في الوقت ذاته، أغنية، قصة غنائية لا تبوح بها لأحد كي تعلمها لابنها البالغ عمر الرجال بعد أن يجلب غنيمته الأولى من اللحم الطازج إلى الخيمة.

يوم اصطدت بفخاخي أول سمّور أسود، السمور الأول في تلك السنة، اعتقدت أنه يجدر بي أن أقيم طقساً تكريماً لذاك الذي يتحرك ويسود سيادة غير مرئية في ما وراء سمواتي من الجانب الآخر من عالمي الذي ألمسه وأراه.

وهكذا تمت عملية التكريم وانجزت الشعائر المناسبة.

إن السمور الذي جلبته، متصلباً من البرد، صار ليناً بعد أن وضعته قرب النار.

كانت فروته الداكنة تلمع بلون مائل إلى الزرقة على ضوء اللهب، كان، كما أحسب، أجمل غنيمة فزت بها طيلة سنوات.

ربما كان رمزاً أو علامة للزمن الجديد؟ ختم العهد؟

غرزت شفرة مديتي الحادة في عنق السمور، وحززتُ، بتؤدة الجلد من «البوز» حتى الذيل.

كانت تلك هي المرحلة الأولى من التقصيب. لم أشرع في المرحلة الثانية على الفور. إنما وضعت ذلك الحيوان الميت من أجلي، فوق يدي المبسوطتين، ورفعته فوق ما كان يحيط بي، المأوى المشيد من الأغصان، والنار المستعرة، وغابة الأرز الزاحف، ومددت الغنيمة ـ تقدمة ـ إلى أكبر آلهتي، إلى «تشي مانيتو»، ثم إلى الآخرين، آلهة الغابات والأدغال أولئك الذين ينظمون مسيل المياه والذين يسيّرون الغيوم في السماء. لم أنس أية قوى، حتى تلك القوى المجهولة والضرورية التي تقود تلك الحشرات المفيدة، آكلة الهياكل العظيمة، حفارات القبور التي تحافظ على أرض الغابة نظيفة، ولا تسمح قط أن يلوث موتُ الحيوانات الجوارَ.

آلهة الحياة ( «تشي مانيتو» الذي يبعث الروح في الانسان منذ تكوينه)، آلهة البقاء، آلهة الترتيب والرعاية الحسنة للطبيعة، آلهة متواضعة كذلك، سيرة ديانتي التي حافَظَتْ طويلاً على مقام العرق الأحمر كريماً.

ممسكاً السمور الميت بيدي، أحطت النار برقصة تعلمتها في طفولتي، وابتكرت موسيقى ثم لفظت، تحت أنغام هذه الموسيقى، كلمات الابتهال.

فعلى هذا النحو ينبغي تكريم آلهتي، من أعماق الروح مع المقدرة على ابتكار الصلوات الخاصة.

عندما قدّرت أن التكريم قد تم أداؤه أداءً كاملاً، وعندما شعرت ببهجة الآلهة تتجلى في داخلي، حان وقت المرحلة الثانية.

رفعت، باهتمام، جلد السمور وفصلته، بضربات خفيفة واثقة عن الطبقة الدهنية، لقد تطلب انجاز ذلك وقتاً طويلاً، إذ كان مهماً أن يكون هذا الجلد من الصنف الممتاز من بين الجلود كافة، خالياً من أصغر ضربة خاطئة أو أقل خدش.

جردت الرأس أيضاً من فروته والذيل كذلك. وإذ ترى الفروة منشورة، كي تنشف، بوسعك أن تخمن شكل الحيوان كاملاً، وعلى الهيكل الملقى جانباً، لم يكن ثمة أثر لشعرة واحدة.

كان ذلك إذن عملاً جميلاً، منجزاً انجازاً حسناً من قبل من يحترم مهنته.

كان جلد السمور الأسود كامل الأوصاف. وبالحكم

على لون الفروة وعلى عمر الحيوان وعلى نهاية الزغب الداكن وعلى سلامة الوبر الطويل، كانت ـ وبوسعي أن أقسم على ذلك ـ فروة نادراً ما شاهدت مناضد المؤسسات التجارية مثيلاً لها.

كنت ألقم ناري طيلة هذا المساء ليعم الدفء والنور. وبحجر، خاص بهذا الاستعمال، محفوظ في عمق الكيس، منحرف ومشذب بدقة، كشطت الدهن كله واللحم كله من الجلد الداخلي، ثم غسلت قفا الجلد وباطن الوبر.

بعد ذلك لففت الفروة، وعندما غفوت كنت أملك، تحت رأسي تلك الفروة التي كنت أعرف أنها أكثر من رمز، كانت اشارة من الآلهة الموافقين على مشروعي.

هل ثمة إذن في ماوراثيات السلالات كلها آلهة بوسعها البقاء على قيد الحياة عندما ينقرض شعبها. لا توجد جنة إلا من أجل المختارين. ولكن إذا دفع الهنود الجزية لآلهة أخرى، وإذا لم يبق من أجل آلهتي الـ «مانيتو» أي إنسان يتضرع إليها بلغتها، ما الذي سيحل بها حينذاك؟

أينبغي عليها، من أجل أن تستمر في العمل كما في

العصور القديمة، أن لا تكون سوى آلهة للصنوبر وللبتولا وللحيوانات ولمئة الف بحيرة؟

كنت على يقين الآن، إنني لست وكيلهم الحر والحريص على البدء من جديد فحسب، بل مسيحهم، إلى حد ما، على مستوى شعبي الصغير.

لم أكن أطلب أكثر من ذلك.

# 9

قبل مئات، بل آلاف السنين لم يسكن غابتي سوى الحيوانات. لم يكن الانسان قد جاء إليها بعد. ولم تكن أوراق الأشجار تردد أصداء أصوات الانسان، وإن كان للحيوانات أعداؤها، فما من عدو فيها كان ذا قدمين كهذا، غير المتوقع والمنافق والمخترع الذي أتى فيما بعد.

إن غياب الانسان عن الغابة لم يجعلها أكثر أمناً للحيوانات السائرة فيها. فلكل كان قدره المحتم.

وهكذا اتحدت الذئاب في قطيع، ذات سنة قحط، يوم كانت الغنائم السهلة قد قُضي عليها باكراً.

القطيع الأول، تؤكد أغانينا، تنظم عند ضفاف بحيرة «كاكوش»، بحيرة القنافذ. «أوالا»، الذئب الشاب واسع الحيلة، حاد البصيرة، رأى، ذات يوم، أيلاً ضخم الجثة يشرب الماء عند الضفة الرملية. كان «أوالا» جائعاً. وكان يعرف أن

ذئاباً أخرى في الجوار كانت جائعة أيضاً. مختفياً في حرجة صغيرة، تشمم «أوالا» الرائحة طويلاً، مراقباً الحيوان مقدراً حظوظه.

ولكن «أوالا» كان ذكياً، وإضافة إلى بسالته كان يملك الحكمة. وإذ شاهد الأيل على وشك الانصراف والغياب في الأدغال الكثيفة، فكر «أوالا» فجأة أن يستغيث ببقية الذئاب. ولكن كيف يفعل ذلك؟ فلم يكن «أوالا» يعرف سوى نداء واحد يبلغ البعد الكافي، وهو نداء الذكر للأنثى. نداء الربيع الذي سيدهش، دون شك، الذئبات كافة في الأرجاء ويثير فضول الذئاب.

انتفض الأيل. سينصرف خلال لحظات. شعر «أوالا» بنفسه عاجزاً عن الهجوم على هذا الحيوان الهائل القادر على سحقه بضربات حوافره. وإذا ما انقضَّ على عنق الأيل عند الوريد وتشبث به جيداً، فإن الحيوان النازف حتى الموت المحرك رقبته الكبيرة القوية، بوسعه أن يصرع «أوالا» ضارباً به الأحجار أو جذوع الشجر.

كلا، كان لا بد من المساعدة، كان لابد من أن تأتي الذئاب كلها. وشرع «أوالا» يعوي يائساً. فوثب الأيل، على الفور نحو الغابة، إلا أن «أوالا» تعقبه دون أن يكف عن

العواء.

في البداية، لم يحدث في الغابة، جواباً عن عواء الذئب، سوى صمت مندهش. فقد خرست الحيوانات كلها، مصغية لهذا النداء الذي لم يكن أحد يتوقع سماعه خلال يوم تشريني.

ثم بعد ذلك، ومن مكان قصي، استجابت واحدة من إناث الذئاب. تعرّف «أوالا» إلى صوت ذئبة في عزّ الشباب. صوت خجول بعض الشيء يستفسر أكثر مما يجيب.

ولكن هذاالترتيل الأول، الذي سيصبح طقسه، منذ الآن تقليدياً، أثار الفضول ذاته لدى الذئبات الأخريات في الجوار، ثم سرعان ما تساءل صوت الذكور أيضاً. وفجأة حصل التآلف. فمن فوق القمم كلها ومن أعماق الأودية، بدأ زهاء ثلاثين ذئباً الحوار مع «أوالا». في حين ظل الذئب الشاب يلاحق الأيل طوال الوقت.

هل أدرك أحد الحيوانات في الغابة ما كان يرغب فيه «أوالا»؟ أهي غريزة قد حركت الذئاب؟ لا تجيب الاسطورة عن هذاالسؤال. ثمة شيء واحد نحن متأكدون منه: لقد استجابت الذئاب، ذكوراً وإناثاً، لنداء «أوالا» وسرعان ما أمست جميعها تجري إلى جانبه، فما عاد ذئب واحد يطارد

الأيل الضخم، إنما قطيع كامل جائع مفترس، يسرع الآن في صمت.

في جميع أنحاء الغابة، لم تعد تُسمع سوى الأنفاس اللاهثة للأيل الضخم، الذي سرعان ما أُنهك. وخلفه كان جريٌ صامت للذئاب، حشد رشيق متراص متصلب، كانت تتصاعد منه، من حين لآخر، دمدمة أو عواء مقتضب، وأوامر سير يصدرها «أوالا» الذي تسلم رئاسة القطيع.

أُدرك الأيل على ضفة بحيرة أخرى. وانقضّ القطيع بكامله على الغنيمة. تلذذٌ نهم لم يبق منه، بعد أن هدأ الجوع، سوى بقايا عظام مبعثرة على الشاطئ.

عندما استيقظ القطيع توجه «أوالا» إليه بما معناه:

- كنتم جائعين، فاستدعيتكم فأكلتم. إذا رغبتم سيكون شأننا هكذا كل ليلة.

حدقت الذئبات المعجبات، بعيونها الواسعة، بالذكر الشاب ذي الثقة الجميلة بالنفس. أما الذئاب الأكبر سناً من «أوالا» أو الأقل جسارة منه، فقد عقدوا مجلساً، وحدث

انشقاق. انفصل ذئب عجوز عن القطيع الجديد، ورحل متوحداً ومشاكساً.

ـ سأظل زعيمكم، قال «أوالا»، مادمت قادراً على تأمين الصيد لكم.

وهكذا ولد القطيع الأول.

أمضى «أوالا» النهار الأول مقتفياً آثار الفرائس الدسمة، مراقباً ذهابها وإيابها. وما أن حل المساء حتى هرع صوب إحدى القمم وأطلق صيحة التجمع الأولى. فتصاعدت الأجوبة من أدغال البلاد وجحورها كافة. بعد نصف ساعة تشكل القطيع، فأطلعه «أوالا» على الحيوانات التي سيطاردها، وبدأ الصيد الصامت.

كان «أوالا»، كما تقول الاسطورة، أول ذئب ـ زعيم لأول قطيع، ذئب شغلت مآثره الأغاني باللغات الهندية، وألهم كثيراً من الشباب الشجعان من العرق الأحمر.

في وقت لاحق، عندما ظهر في الغابة أوائل الرجال ذوو البشرة النحاسية، تشكلت قطعان ذئاب أخرى. وصارت مئات القطعان تصطاد في غابة الشمال كلها. ولكن كانت ثمة قطعان بشرية أيضاً يترأسها، شأن الذئاب تماماً، زعيم

شاب. وكانت الحيوانات المختبئة اللابدة خوفاً من القتل، غالباً ما تتساءل أي القطيعين كان أكثر وحشية، قطيع الذئاب أم قطيع البشر؟

وهكذا توجب، بسبب الذئاب وبسبب البشر، على حيوانات الغابة أن تتعلم خدعاً جديدة. لم يكن لديها، حتى ذلك الحين، خصوم سوى أولئك الذين أعلنت عنهم آلهة الغابات. الآن ثمة أعداء آخرون، غير الذئاب، قد ظهروا، البشر المحتالون والماكرون والمخترعون والمرعبون.

كان الانسان، عدو الحيوانات كافة، يتغذى بالحيوانات الكبيرة، وبالأرانب البرية والقنافذ أيضاً. كان يقتل السمّور المسكي، وجرذان المسك والقضاعات والخز والأيل والغزال والقندس والقطط البرية وابن عرس والذئاب والثعالب من أجل فرائها. كان يقتل الذئاب متذرعاً بالدفاع عن نفسه من هجماتها. كان يذبح الطيور ويقتل السناجب ويختطف الأسماك من الأنهار والبحيرات، ويسرق من النحل عسله وشمعه، وينتزع من الدببة صغارها، ويخرب سدود القنادس.

كان الانسان مشبعاً بالغدر. كان يقتل الأيل ثم يمزقه إرباً إرباً وينثر لحمه في كل مكان على شاطئ البحيرة. عندما

كانت الحيوانات البائسة كالثعالب والخز والسمور والأيل، تأتي لتأكل، كانت تُطعن بالسهام، أو تُخنق في شراك مصنوعة من سيور جلدية لينة منصوبة فوق ممراتها.

بعد مضي مئات السنين، لا بل آلاف السنين، جاء بشر آخرون من ذوي البشرة البيضاء، جاؤوا إلينا بما هو مروِّع. لم ينصبوا شراكاً لينة، إنما فخاخاً معدنية رهيبة تمزق اللحم شر تمزيق.

على أن هذه الحرب الصغيرة ولَّدت الخدع الكبيرة لدى حيوانات الغابة. وعلى هذا النحو تمت إعادة توريث للغرائز. وتمكنت الحيوانات من تعطيل خدع البشر أكثر مما تمكن هؤلاء من محاصرتها.

تعلمت الحيوانات ضرورة الصمت. تعلمت كيف تختفي في جحورها ساعات طوال. إذا واجهت الحيوانات، فجأة، عدداً كبيراً من الأعداء في وقت واحد، لم تُهلك دائماً، إنما كانت تنزح، أحياناً صوب البقاع الأكثر هدوءاً مخلية، في الوقت ذاته، مناطق واسعة.

وجاء يوم صار الحيوان يعامل فيه الانسان معاملة الندّ للندّ. لم يكن ذلك شريعة الأقوى تماماً، إنما كان شريعة الأكثر

دهاء، كانت لعبة براعة بين الحيوان والانسان.

واقتضى الأمر، ربما، الف عام. في حين كان الثعلب يسير، فيما مضى، مرفوع الذيل مباشرة نحو السماء، ويجوب الغابة بحرية، صار الآن، يوماً بعد يوم، ينسل بصمت، يدس ذيله بين ساقيه، وينقضّ على فرائسه ثم يهرب في الحال. هل كان نسيم الغابة يحمل رائحة انسان تجعل الثعلب يفر مسرعاً. لم يعتد الثعلب سابقاً على الهرب، أما الآن فمن يستطيع ادراكه إذا هرب؟

وكان الأمر كذلك بالنسبة إلى كل حيوان.

عادات جديدة غيرت المشية والمسكن وتوقيت الصيد بل حتى طبيعة الفرائس.

ولكن، وعلى الأخص، تعلُّم الحيلة واستخدام خُدَع دائمة التجدد.

إذن فبسبب الذئاب أولاً ثم البشر فيما بعد (والذئاب أو البشر عندما يصطادون جماعات يشكلون أخطاراً مضاعفة على كل حيوان) توجب على كامل حيوانات الغابة أن تتخذ

طرقاً جديدة في العيش.

أليس بوسعي أن استرشد بذئب الاسطورة «أوالا» مؤسس القطعان، واسترشد كذلك بالحملات القديمة عندما كان الرجل ـ الزعيم يقود قطيعه الخاص نحو الطريدة.

وأن أجمع الجبليين من جديد. الرجل ـ الذئب، الرجل ـ الزعيم، مهما بدا ذلك مؤقتاً، حاشداً قومي أترأسهم وأقودهم، وقد تحرروا أخيراً، إلى البلد الذي سأؤمنه لهم؟

عشت شهراً، اصطدت طوال الشهر، انصب الفخاخ وأفكر. كل شيء في وحدة متكاملة ذات عناصر لا تنفصم، كما يجب أن يكون عليه الأمر لدى كل امرئ يسكن الغابة ويعيش منها، ويرغب في أن يحصل منها على الخير الأعظم.

فكرت، لأن ذلك كان ضرورياً، نظمت المستقبل وحددته.

وأكثر من ذلك كنت لا أزال أعقد الآمال.

وعندما ذهبت إلى الموعد على ضفة «بيرسيميس» الموعد

الذي كنت أعرف تمام المعرفة بأن **زعيم البيض الأكبر** لن يحضره، بكيت هذه المرة، بكيت على الرغم من كل شيء، لأن اعيائي كان كبيراً، ولأن عمري كان يثقل كاهلي، ولشدّ ما رغبت في أن أكون مخطئاً وأحصل، عن رضى، على ما أدركت الآن بأن عليّ أن أنتزعه من البيض انتزاعاً.

# 10

عند منعطف النهر، حيث كان السطح المتجمد طويلاً وعريضاً، وأملس كذلك، أملس بما فيه الكفاية لتحط عليه طائرة، لم أجد شيئاً عند وصولي.

انتظرت أربعة أيام، دون أن تظهر في السماء طائرة واحدة تحمل الزعيم الأكبر، وحتى لم يأت رسول يحمل لي الاعتذار.

لقد دعوت زعيماً لمقابلتي، زعيماً كان يجهل آداب سلوك الزعماء.

وعلى هذا النحو، فإن الحرب لن تزول أبداً عن وجه الكرة الأرضية، مادام الرجال المنتخبون لا يتعلمون آداب السلوك. وما داموا لا يحترمون عادات أخوتهم ذوي البشرة المختلفة.

لم أر شيئاً في السماء مكتوباً، يجعلني أنا، صاحب البشرة الحمراء، أدنى مقاماً من رئيس الوزراء الأبيض الحاكم في «اوتاوا».

إنه يشعر بالبرد عندما أشعر بالبرد، ويجوع عندما أجوع. ويعاني من الآلام ذاتها، وكل رصاصة تخترق جلدي تمزق جلده أيضاً.

ستهب الريح من فوقي كما من فوقه، وسيغرقه الماء كما يغرق الجبليين. البعوض ذاته يزعجنا، وزوجتانا تُنكحان على نحو مماثل.

منزله، ربما أكثر دفأً من منزلي، وهو يملك ثروة كبيرة، ولكن ثروتي هي بلادي، وبلادي واسعة، إن هذا الرجل بوسعه، إن أراد، أن يستأجر سفناً كبيرة ويجوب فيها جميع أرجاء العالم، ولكن هل بوسعه أن ينزل كما يشاء، مثلما أفعل أنا، منحدراً سريعاً للمياه في قارب من لحاء البتولا؟

زنّا بميزان نزيه، زنّا بالعدل، جلداً ودماً، وبكل ما هو جيد ورديء فيه، عضواً بعضوٍ، وعضلة بعضلة، هل هو مختلف عني؟

إنه، وقد تغذى خير تغذية، سيُلتهم، ربما بمتعة فائقة، من

قبل ذئب سيكون ذواقة لدى جماعته! ولكنني لا أعتقد بأن الحديث يدور هنا عن تفوق يحسد عليه.

في نهاية الأيام الأربعة، انتقلت إلى مكان أقرب من المحمية. لن أصعد إلى منطقتي، من الآن فصاعداً، إلا والعمل قد أنجز ووصل إلى نهايته، أياً كانت هذه النهاية.

ثمة ما بين نهري «بيرسيميس» و«مانيكوغان» سيل يجتاز الهضبة خلف الطريق. ثم ينحرف متظاهراً برغبته في بلوغ نهر «بيرسيميس» ثم ينعطف من جديد صوب البحر هذه المرة. توجد في هذه الزاوية القائمة غابة صغيرة قلّت كثافتها باحتوائها على أشجار من الصنوبر العالي والصفصاف العريض. وفي هذه الغابة، قرب السيل، توجد فسحة للوصول إليها يتوجب اختراق دغلة كثيفة، فسحة مفروشة بالرمال، وهي تساوي بمساحتها ثلاث خيام مخروطية، ونادراً ما يغطيها الثلج في الشتاء.

تتوهم وأنت في هذه الفسحة وكأنك في الخريف قبل هطول الثلج. وهي في حالتها تلك تشكل مخبأ آمناً ومضيافاً.

هناك بنيت مأواي، كنت واثقاً بأن أحداً لن يأتي

لملاقاتي، وإذا طمست آثار خروجي ودخولي إلى المأوى، فلن يتمكن الجبليون من تعقبي.

ربما كان لدى «تيبرنيش» المهارة الكافية كي يفعل ذلك، ولكنني كنت على يقين بأنه لن يوافق على أن يزعج نفسه مرة ثانية.

«بيكال»؟ الآخرون؟ من يستطيع؟ كم واحداً من هؤلاء ما يزال محتفظاً بعلم الغابة، هذا الشرط الضروري للبقاء.

كنت إذن في مكان آمن، في فسحة غابتي الضيقة. وبإمكاني اتمام مراحل مشروعي.

الآن يمكن أن تبدأ المرحلة الأخيرة، مرحلةالنهاية، الالتزام الذي لا عودة منه.

(كيف وصلت إلى هذه الحالة؟ شعرت طبعاً بالحيرة أحياناً أو بالخوف، وأحياناً حتى بنوع من الهلع. القلق ذاته الذي يستبد بالرجل الأبيض يستبد بي أيضاً. أمّا أن يكون قلقي مكتوماً على نحو أفضل، أو أن أتلقاه بشكل مختلف فهذا لا ينفيه أبداً. فأنا رجل بين الرجال، وهذا قديكون أكثر الادانات رعباً. لو كنت كائناً دونياً منبوذاً، مقيماً في قاع

السلالة البشرية، لما شعرت بالكبرياء أو بالقلق، بالذعر أو بالعصيان.)

أذكر، منذ ثلاثين سنة خلت، اثر رحلة انتقال صعبة التصديق، وبعد ارتقاء لا نهاية له، وجدت نفسي على مستوى قمة جبل «تورو». كنا ثلاثة في البعثة. أنا وابن عمي ورجل من الجبليين لا تربطنا به صلة قربى. عشنا، طوال يومين، فوق تلك القمة الشديدة الانحدار التي تشبه لوحاً من الصوان في أعلاه بروز ضيق كنا نفترشه للنوم ونشعل نارنا عليه.

وإن كنت أحكي لك عن ذلك، فلأنني في ذلك المساء، بالقرب من المحمية حين كنت بصدد غزو العالم، استرجعت، في ذاكرتي، صورة جلية عن حجر واحد دحرجَتْهُ قدمي، قبل ثلاثين سنة، من فوق تلك القمة الشديدة الانحدار. حجر واحد، تدحرج ذات صباح، قريباً من حرف الجبل، وأزاح حجرين آخرين تابعا السقوط مع الحجر الأول. ثم صارت عشرة أحجار فعشرين وتصاعد العدد حتى عدلتُ عن الحساب.

وتضخم الانهيار وصار كارثة حرثت منحدر الجبل

كله، واجتثت الأشجار من جذورها، ودكت التلال وحفرت الخنادق.

عندما هدأت العاصفة، لم يبق في الجو سوى قليل من غبار بددته الريح كانت المنطقة في أسفل الجبل قد اتخذت مظهراً آخر.

حجر واحد بحجم القبضة، أزاحته قدمي الطائشة.

فيا لضآلة الأمر!

يا «تشي مانيتو» هل كُتب عليَّ أن أخضع لمصيرين متماثلين تفصل بينهما ثلاثون سنة؟

ولكن، صدقني، لم أعد طائشاً. لا زلت أذكر الحجر، وإذا كنت قد حرّكت قوة بحجم قبضتي من أجل احداث انهيار في بلاد البيض، فقد جاء ذلك اثر تفكير وحساب.

على الرغم من ذعري.

على الرغم من القلق.

وعلى الرغم من ضغط الحكمة المزيفة في داخلي، التي هي نوع من غريزة حب البقاء التي كانت تحذرني من المخاطر التي سوف أواجهها.

من كان يستطيع، أن يعرف المخاطر أفضل مني،

في مدينته البعيدة، وبسببي أنا سيريق زعيم البيض الأكبر ماء وجهه.

لم تكن عندي نوايا أخرى. فلقد جعلتُ كل حركة وكل قرار وكل مرحلة جديدة محوراً لهذه الحقيقة المطلقة. إنه سيريق ماء وجهه.

وأنا، بوسعي أن أموت.

إذا استدعى الأمر فسوف أرضى بأن أتلاشى، ليولد شعبي من جديد.

إذا استدعى الأمر ذلك.

مستلقياً في مأواي استغرقت في التأمل طوال يومين. كنت أُلقم ناري كي تبقى جمراً على الدوام، وكي يتسرب منها أقل ما يمكن من دخان،

لم يعرف أحد بوجودي هنا، وما كان ينبغي أن يعلم أحد قبل الأوان.

أنا ذاتي، هل كنت أعلم حقاً بوجودي في مكان محدد

من الأرض؟ كان يبدو لي بأنني أسكن الزمن، وأن النجوم كانت لي بمثابة معالم، بدلاً من انحناءات الجبال ومن دروب الأنهار ودوائر البحيرات.

صارت بلادي، إن جاز التعبير، تنتمي فجأة إلى الحلم أكثر منها إلى الجغرافيا. وما كنت أفعله كان يتعلق بالسموّ. وما عدت أشك في ذلك.

توالي سلسلة من الحركات البسيطة والحاسمة وفي النهاية، النتيجة الحتمية.

كان ذلك زمن سيطرة الانسان على الطبيعة حقاً.

هل تتوقع، **يازعيم البيض الأكبر**، لحظة واحدة، مدى القدرة التي قارنت نفسك بها؟

إن زعيم المدن الكبيرة يظن نفسه عالماً، ولكن ما معرفته مقارنة بمعرفتي؟

لا احتاج سوى أيام قليلة للتعرف على كيفية الحياة في المحميات. فكل أمر مصمم هناك، بحيث لم يعد ثمة شيء ليتعرف عليه الانسان، ولا شيء يهرب منه ولا شيء يتخيله. كل شيء في متناول اليد، حتى أن أبسط الكائنات ليس

بوسعه أن يتوه في هذه الأماكن.

بينما هنا، في غابتي، هل بوسعك أيها الانسان الأبيض، أن تتخيل ما ينبغي عليّ معرفته؟

كل مافي حكم مهنتي عليّ أن أحفظه وأخاف منه، وأن استخدمه وأحتاط له.

عليّ أن أطبع في ذاكرتي، الجحور والتجاويف والنتوءات والمرتفعات وأصغر الأخاديد والوهاد والوديان والمنحدرات ومنحنيات الجبال، كل ذلك يجب أن يكون مألوفاً لديّ. وبوسعي، على هذا النحو، أن اهتدي في الغابة. بوسعي، على هذا النحو، التعرف على مساكن الحيوانات، وعلى مناطق الصيد الوفير، وعلى مكان مخيم آمن، وعلى مكان وجود الخلجان أو السيول، والجداول والأنهار. اعتماداً علىاللون كما على الشكل، فالأخضر الباهت يرشدني إلى الحور والبتولا، الخشب الليد، حيث تحب الحيوانات الكبيرة أن تستقر شتاءً. الأماكن الوعرة هي موقع الكهوف والمغاور حيث تختبئ الدببة والذئاب. الهضاب حيث تنمو الطحالب وحيث تنمو الصنوبريات هي موطن الأرانب البرية والسناجب. أما مناطق الأرض الرخوة والعميقة المغطاة

بالأعشاب العالية والأدغال المرنة، فهي خير مكان للفري والحجل والدجاج البري وللديكة البرية، وللقنافذ من بين الحيوانات. أما مكان نمو الأشجار القاسية التي نسميها الغابة المشبوكة بجدرانها وأرضها الرطبة المختلفة عن الأرض الجافة الصفراء في الأماكن الأخرى، بعبيرها المتنوع وأحراجها وأرزها الزاحف، بزعرورها ووردها البري وأدغالها ذات الثمار البرية كالتوت، فهي كلها مواطن جيدة للدببة وللسمور المسكي والقضاعة ولصغار الخز.

كل ذلك توجب عليّ أن أعرفه منذ الطفولة. تلك كانت غابة الصيف، ولكن كانت ثمة ـ أيضاً ـ غابة الشتاء حيث تَوَضُّع الثلج وغزارته يتعلقان بالتوضع الأولي لمختلف فصائل الأشجار بالذات. إذن عليك أن تعرف من الغابة ليس فقط ما ينمو فيها ويعيش، بل كذلك كل ما يرقد على الأرض: إذ أن الثلج يشغل مكاناً ليس بقليل الأهمية فيها.

إن ما يرشدني، قبل كل شيء آخر، هو لون الثلج. فالثلج بالنسبة إلى الجاهل هو الثلج في كل زمان ومكان، أو أنه هكذا يُعتقد. قلّ، مَنْ يلاحظ الفوارق الطفيفة في الثلج من حديثي العهد بالغابة.

الثلج في عز الشتاء، يكون قاسياً أبيض بياضاً بوسعه،

لفرط ما يبهر البصر، أن يعمي المرء عند أقل ضوء للشمس. عندما يحل آذار ويصبح تساقط الثلج الجديد نادراً، يزداد البساط الأبيض صلابة ليشكل قشرة خارجية سميكة ومتينة. يُظْهِر الثلج حينها، هنا وهناك، تساقط الأشواك وغبار اللحاء الناتجين من الأغصان التي تهزها الريح وتحف بعضها ببعض. وتترك الحيوانات على الثلج آثار فضلاتها، ويصبغ بول الدببة أو المعز الوحشي بياض الثلج بلون أصفر في الكثير من الأماكن.

ولكن عندما ينتهي شهر نيسان، في بداية أيّار في غابة الشمال الكبيرة البعيدة جداً، حيث يدوم فيها الشتاء مدة أطول، يتصاعد دفء الجنوب من الأرض ومن عمق الأرض، يأخذ الثلج هنا وهناك لوناً لاهو بالأبيض ولا هو بالرمادي. يمكن القول بأنه يفقد لونه قليلاً. حتى أن المرء يتكهن أحياناً بأن خلف الأبيض، لوناً قريباً من الأسود ـ الرمادي الشديد الدكنة، يتجلى من خلال الطبقة الشفافة. وهنا يكمن الغدر.

أن تضع قدمك على مثل ذاك الثلج، يعني أن تنغرز فيه حتى العمق، عمق سائل مطوّق، شبيه بالرمال المتحركة.

وإذا وُجد، قل لي، تحت ذاك الثلج بدلاً من الأرض السوية، وادٍ، أو صدع؟

إن من يقع في مصيدة كتلك سوف ينتابه الذعر ولن يتمكن من الخروج منها. وإذ يكون وحيداً في الغابة فلن تبلغ نداءاته أحداً: محجوزاً بين كتلة اسفنجية، متحركة متداعية، سيفطس هناك كما يفطس الحيوان.

ها هي ذي بعض من المعارف التي توجب عليّ اكتسابها، أيها الانسان الأبيض، طيلة حياتي، طيلة تجربتي.

قل لي إذن، إن كان ثمة في حياتك، في الحياة بمدنك وأصقاعك ذات الأراضي المستصلحة والطرقات المنظمة والاشارات والمعالم، قل لي إن كان ثمة حاجة إلى علوم مساوية لعلومي؟

لماذا عليّ أن أعدّ نفسي أدنى مقاماً منك، أنا من سيهلك في نهاية اليوم الثالث في غاباتي؟

الذرات التي تشطرها، والطاقة الخارقة التي تتحكم بها، وكذلك شرائعك، أيها الدخيل، وحضارتك، أرني مزاياها، قارن قيمك بقيمي.

إنك تتحدث عن القوة؟ أليست صاعقة واحدة تنزل

على صنوبرة كبيرة أشد قوة من أضخم آلياتك؟

ألا تضاهي طاقة إعصار واحد يكتسح عشرين مقاطعة، قنابلك الكبيرة الفتاكة؟

قل لي أيضاً، إن كان علمك قد خلق صنوبرة سوداء واحدة، أو وردة واحدة، أولون الغروب، أوشذى منتصف نهار أيّار العطر؟...

# 11

في اليوم الخامس من وجودي عند أطراف القرية جرحت وريداً في ذراعي وكتبت، بدمي، على ورقة من لحاء البتولا أولى رسائلي:

«لم يأت **زعيم البيض الأكبر**. سأنتظره ثانية في المكان ذاته بعد ستة أيام. إذا لم يأت سيريق ماء وجهه».

وانتظرت حلول الليل ثم تسللت نحو منزل الرجل الأبيض في المحمية.

أنا، أشيني، ابن غابة الشمال، لم أكن أخشى الجبليين القاطنين في «بيتسياميتس». كانوا نائمين جميعاً، ولكن حلت بهم المصائب لما أحسوا باقترابها.

لم يكن هناك منزل واحد مفتوح العينين، كانت القرية

كتلة ساكنة مجهولة المعالم ما استطعت التعرف إليها.

ومع ذلك فقد كان البحر يلطم الشاطئ الرملي، وكان ينبض بالحياة ويذكرني بنفسه. لماذا كانوا نائمين كلهم؟

إن حاسة السمع عند الجبلي شديدة الرهافة، وحاسة الشم تمكنه من التعرف من مسافة بعيدة على القادمين والحركات والدوافع.

عين الجبلي لا تغمض إلا نصف إغماضة، عندما يعيش وفق شرائع سلالته.

ومع ذلك فقد ذهبت إلى تلك القرية كما يذهب كبش إلى قطيعه. ما الغاية من أبوية البيض هذه التي تغرق الناس، أبناء الطبيعة العظيمة، في سبات عميق إلى درجة تستطيع فيها أن تذبحهم دون خوف...؟

كان بوسعي أن أدخل إلى كل بيت من بيوت «بيتسياميتس» وأن أغدو وأروح كما أرغب، وأن أقتل وأسرق. إنها لحقائق قاسية تلك التي تهد كيان القرارات كلها.

الإصلاح، إعادة البناء، اعادة التكيف، إعادة التأسيس! البدء من العدم الذي هو قدرهم الحالي، واستئصال الموروثات

من داخلهم، وإعادتها إليهم مضاعفة مئة مرة، كبيرة متجسدة فيهم...

كانت قرية «بيتسياميتس» مشيدة بعيداً عن الطريق المعبد، وكان هناك شارع يلتقي بآخر ثم مفترق طريق يزداد اتساعاً، فالكنيسة فمنزل الكهنة فالمدرسة فالأبنية النظيفة للاداريين البيض، وفي نهاية ذلك كله وأمامه كان: البحر.

(وكما تعلم، فإنني لم أتحدث إليك عن البحر إلا قليلاً، إذ لا متعة لنا فيه ولا منفعة. لم نتعلم قط بناء القوارب والصيد في عرض البحر كما يفعل البيض. اصطاد بعضنا ذئب البحر بالبنادق على جليد السواحل، وكان ذلك من أجل مساعدة البيض وخدمتهم وفي سبيل الكد وكسب الدريهمات.

لا توجد في لغتي كلمات جميلة تصف بها البحر أو تتغنى به. غالباً ما فكرت في وجود اتساع لا حد له، كان يمكن أن ينفعنا ولكننا هربنا منه.

ومن المؤكد أن قبائلنا غالباً ما كانت تسكن السواحل. لا سيما عند مصبات الأنهار لأجل سمك السلمون الذي كان يؤم تلك الأماكن للتكاثر. وكذلك لوفرة الثمار البرية قرب البحر، ولوجود أرض خلاء كانت تستميل من بيننا

أولئك الذين أرهقتهم زحمة الغابة.

ولكننا لم نحُبِ البحر كما جابهُ البيض. ربما لأنه لم يقدم لنا أية نقاط استرشاد، ولأننا بحاجة إلى أن نتفحص ما يرتسم فوق أفقنا كي نشعر بالأمان.

ماذا يسعني فعله في البحر وسط الضباب؟

أو في الأيام الغائمة والرمادية، حيث يمحي الأفق، كيف أهتدي إلى طريقي؟ فغارب الموجة ليست قمة صخرية، ولن أستطيع رسم دروبي.

إن البحر الذي كان بوسعه أن يكون صديقاً، ظل ما يشبه خصماً خفياً...)

راقبت، من أحد المراصد، حياة المحمية طيلة ذاك النهار.

أعتقد أن الرجل الأبيض كان مشغول البال، لأنني رأيته يطرق عدة أبواب، بما فيها باب «بيكال».

هل يبحث عن أعوان؟

أو عن صورة لي تعطيه سلاحاً يغلبني به؟ كان يحب الهنود. ولكن أي هنود؟ الهنود المذعنين أم الهنود المتمردين؟ أم أنه، على العكس، سيجعل من نفسه حليفاً لي مساهماً في

مشروعي؟

ما الذي كان يقوله هذا الصباح عبر الأسلاك الخارجة من المحمية والجارية فوق الأعمدة حتى الأراضي المتحضرة؟ وأية خطب سرية كان يحملها دق الطبول الغامض هذا، إلى المدى البعيد؟

إنني لا أتقن سوى علم الأرض. ولم أكن أستطيع أن أعرف أية مناقشات تمت بين البيض البعيدين وبين ذاك الذي هو هنا، القريب جداً، والذي أصبح الآن في غاية الاضطراب.

رأيت أيضاً أن كهنة ديانة البيض منهمكون بدورهم. أحدهم كان يحاور «تييرنيش» إزاء فناء السوق خلف الكنيسة. إلا أن «تييرنيش» كان يرسم، برأسه، على الدوام علامة النفي، الأمر الذي سكّن روعي.

كان «تييرنيش» الشخص الوحيد الذي مازال يعرف كيف يتشمم الأثر فوق سطح الأرض. ولم يكن العثور عليّ بالنسبة إليه سوى لعبة... لو كان الأمر يتعلق بملاحقتي، فأي قدر شاء أن يرفض ذلك؟

جاءت سيارة الثلج التابعة للنقل البريدي على الطريق ومرت بمحاذاتي ثم مالت نحو طريق المحمية، هل ستوضع

رسالتي في حقيبة متجهة إلى «أوتاوا»؟ وهل سيتم تسليمها هناك إلى الزعيم الأكبر؟

وماذا سيفعل هذا الأخير؟

راودني أمل مجنون، أمل عارم ورائع. ماذا لو وافق على المباحثات؟ ماذا لو تمكنت من أن أجعله يدرك الخير الذي أسعى إلى تحقيقه.؟

ماذا لو جاء إلى‌هنا، ورأى بأم عينه النساء المرهقات والأطفال الكئيبين والرجال الهامدين؟ لو استوعب أن طلبي لا يعيد إلى الجبليين شرفهم فحسب، بل يعيد إلى‌كندا كاملة شعباً جديداً يضاف إلى الشعوب الأخرى، يعيد ثروة ومعرفة وبداية حكمة واسعة؟

كنت أرى، فيما يراه الحالم، بأن زعماء قبائلنا يساهمون في المباحثات العادية مع البيض ويقدمون لهم هبة تقاليدهم.

«احفروا هذه القناة كما تشاؤون، ولكن راعوا، في أثناء ذلك، منحدر المياه الذي سوف يسقي مناطقكم حيث الكتان

والبرسيم. احفروا أينما شئتم، ولكن بحيث ينمو الكتان ويزهر البرسيم اللذين تحتاجهما شعوبنا...»

يا لضآلة الأمر...

«لا تشرعوا اليوم في بسط امبراطوريتكم، فثمة اشارات في السماء تمنع استنفار المحاربين. وليست هناك معركة حربية أقوى من معركة الانسان ضد الطبيعة. إن معركة الانسان ضد الانسان ليست سوى رياضة الحشرات البدنية، ولا تشغل بال أي إله. ولكن إن أخضعتم الجبال أو ألجمتم المياه، فإن حربكم ضد «المانيتو» سادة الأرض والمياه ستصير مريعة. من أجل البدء في مشروعكم، انتظروا ريثما يعطيكم «تشي مانيتو» الأعظم، علامة الموافقة في السماء...»

كان ذلك حلماً.

في نهاية مهلة الأيام الستة، وعلى الرغم من كل التحركات في المحمية، مرة أخرى لم يأت الزعيم الأكبر، ولا مندوب عنه إلى الموعد على ضفة نهر «بيرسيميس».

وعلى هذا النحو توجب انجاز المرحلة الثالثة.

# 12

تهالك الذئب «كاياه» على بقايا جذع شجرة، وظل هناك مستلقياً ينتظر. ولكنه لم يكن يرغب في الموت على ذلك النحو. كان بحاجة إلى أن يقاوم الألم الكامن فيه، بحاجة إلى طرد هذا الألم، وأن يستعيد عافيته. فقد لاك، وهو يعبر دغلاً صغيراً، أوراقاً كان يعرف مفعولها النافع. لم يتراجع الألم.

فوق مصطبة، حيث التربة عارية والأرض ندية، تدحرج «كاياه» ليمسح الجرح بالدُبال[1] جيداً. وبلسانه المشبع باللعاب بلل الدُبال حتى جعل منه طينة دسها عميقاً بين شفتي جرح الخاصرة المنفرجتين.

بوسعه، وهو مستلق الآن في مخبئه مختفياً عن الأنظار،

---

(1) الدوبال: مواد عضوية منحلة في التراب.

أن ينتظر حتى يبلو الجرح. هكذا علمته، فيما مضى، أمه وهي إحدى كبرى ذئبات «ميشيكامو».

كان ذلك منذ زمن بعيد، سنوات مرّت، سنوات طويلة، عاش قدره كحيوان. كان «كايا» يشكل قوة بين القطيع. عندما كان يعوي، كان خمسون صوتاً يستجيب له من أركان الأفق الأربعة، هل أحصى القطيع ذات يوم؟ كم من الذئبات الشابات إجْتُذِبْنَ من قطعان أخرى إلى قطيعه، مفتتنات برائحته، رائحة الزعيم، اشعاع القوة والعضلات والرشاقة والدهاء؟

من بوسعه أن يقود القطيع إلى الصيد أفضل منه؟

مَنْ ؟

الآخر؟...

غارقاً في ألمه، منازعاً الموت بكل قواه، تذكر «كايا»، خطمه ممدد على قائمتيه الأماميتين، تذكر الأشهر الأخيرة.

الآخر...

هذا الآخر، الشاب «كيملا» الغريب بينهم القادم من

«كاهونغا» دخيلاً عليهم، من كان يتكلم بصوت عال ويزاحم الكبار. كان يشب خارج الأدغال، وكان يجلب الغنائم كل مرة. هل رأى أحدٌ «كيملا» خالي الوفاض؟

«كايا» ضد «كيملا»، ولكن كان لابد من امتلاك القوة. وكان لابد من حيازة احترام القطيع. هل هناك من سيقلق بشأنه؟ هل ستأتي انثى شابة وتشم هذه الأدغال وتكتشف «كايا»؟ لقد كفت رائحته، منذ زمن، عن اجتذاب الاناث. فأصبح «كيملا» هو من كن يذهبن إليه.

شدَّ «كايا» من أزره. لم يكن ينبغي قول الأشياء على هذا النحو. فهذا كان يعني التسليم بالهزيمة دون معركة. لم يكن «كيملا» سوى ذئب أرعن، حالفه الحظ في العيش في غابة وفيرة الصيد. لم يكن الفضل يعود له في العثور على الطرائد في كل دغل. ماذا كان سيجري له لو عاش في الماضي، عندما كانت الغابة خالية، وحيث كان ينبغي قضاء يومين في الصيد للعثور على معز وحشي؟... وحيث لم يكن يوجد من الفئران والجرذان ما يكفي لإطعام جراء الذئاب في الأوجار؟

تحرك الذئب العجوز، فجعله الألم يتصلب قليلاً. تنفس

تنفساً سريعاً، ولكنه لم يئن. كان لابد من الصمت، ولابد من السكون، كان لابد من السرية.

على الأخص السرية. كان يجب أن يجهل القطيع مكان «كايا». ربما سيعطي هذا الحرية المنشودة لـ«كيملا»، سيعطيه الفرصة ليدعي الزعامة، وأن يرسخ مواقعه في رئاسة القطيع، إلا أن «كايا» لم يكن يستطيع أن يظهر نفسه للقطيع مع هذا الجرح. هل ستأتي انثى لتشم خاصرته، ثم تذهب بعد ذلك في الحال لتقول بأن الجرح قد سببه سمّور مسكي؟ وبأنه هو «كايا» زعيم القطيع قد سمح بغباء ـ عندما كان يتعقب فريسة ـ لسمور مسكي أن يثب على خاصرته ويعضها؟ وبأن هذا السمور الشاب والقوي كاد يقضي على الذئب الذي أصبح الآن عجوزاً أقل مهارة وأقل رشاقة؟

سيتعلم القطيع الضعف من «كايا». وستنقضّ الذئاب الشابة، برئاسة «كيملا»، على «كايا» وتلتهمه.

جاء ابن عرس من مكان قريب، ومد برأسه من فوق العشب. راقب كتلة الذئب العجوز الرمادية، مخمناً سبب وجوده، تفحص بنظراته كل مكان حول «كايا» وعلى طول خاصرته. فرأى الجرح، ثم تشمم الدم واقترب. لم تبد عليه

أدنى علامات القلق، ولم يرعبه تنفس الذئب اللاهث. دار حول الذئب سريعاً حتى صار في متناول مخالبه، فرماه «كايا» المتحفز، بضربة مخلب. ولكن ضربة الذئب العجوز لم تصب الهدف، إذ تحاشى ابن عرس الضربة بقفزة جانبية ثم وثب على الجرح الدامي.

بعد أن يئس، شرع «كايا» يعوي. ماالذي كان يجري في داخله، لماذا هذا الرعب الفظيع، وهذا الخوف في البطن؟ عوى مستغيثاً بالقطيع، غير مكترث فجأة بكل ما سيحصل. أمر واحد كان ذا اهمية: إبعاد ابن عرس، إبعاد الخطر! كان ابن عرس قادراً على أن يثب على رقبة الذئب وأن يمزق وريده بأسنانه الحادة، وماذا كان بوسع الذئب أن يفعل ضده؟

استغاث الذئب العجوز ثم استغاث، ولكن القطيع لم يأت. «كيملا» وحده جاء، ومكث لحظة مراقباً المشهد. كان خطمه منفرجاً مكشراً عن أنيابه. لقد جاءه النصر سريعاً وسهلاً، سيكون القطيع له ولن ينازعه «كايا» بعد الآن أبداً.

حينذاك وثب «كيملا» على الذئب العجوز. فلاذ ابن عرس بالفرار، فوق عشب الشتاء، ثم أبعد قليلاً على الثلج. وفوق المنحدر في الدغل، شرع الذئبان يتعاركان.

(هل تدرك، على الأقل، لماذا أقص عليك حكاية

«كيملا» الذئب الظافر؟ وحكاية «كايا» الذئب العجوز الذي نبذه القطيع؟

هل تعتقد بأنني أرى صورتي في «كيملا»، أنا الذي لم أخف عنك عمري مع ذلك؟

عد إلى الوراء، بالأحرى، وفكر بأن الذئب العجوز هو أنا. أنا من نبذه القطيع، إن جاز التعبير. أنا من يلعق جروحه الواسعة، ذاك الألم الذي سببته الحياة في داخلي.

و«كيملا... كيملا»، الشاب المقدام، القوي الذي يكسح كل شيء، ويدحر، بوحشية، كل من يعترض سبيله، من هو؟ هل ثمة حاجة إلى أن أجيب؟

من هو الشاب في هذه البلاد؟ من هو القوي والظالم؟ من هو اللامتساهل الذي يواجه العراقيل بوحشية؟

كانتْ لحملات الحرب الصغيرة، أقول لك، الغاية ذاتها التي كانت لحرب التنكيد التي شنها الشاب «كيملا» على الذئب العجوز «كايا». والقطيع في الخلف متيقظ، حابس أنفاسه، قطيع قاس مع القساة، رؤوف إن كان الزعماء رؤوفين. وقادر على أن يلتهم أيضاً، شريطة أن تعطيه حجة لذلك.

«هُزم الهندي الهمجي سريعاً، فاستطعنا أن نواصل

التبشير بالانجيل وسط قبائله».

أرني إلهاً واحداً يريد مني أن أكون لطيفاً في مسعاي. غير أن هذه كانت مطلوبة أيضاً منك أيها الأبيض.

هل هذا مطلب تعجيزي؟

لقد سمح «كايا» القليل الحذر لـ «كيملا» بالدخول إلى أراضي القطيع. وقد قُضي أمر العجوز «كايا» منذ تلك اللحظة.

أما كان ينبغي علينا أن نرد البيض إلى البحر منذ اليوم الأول؟ وأن ننصب الكمائن ونسد الأنهار، ونجفف عيون المياه العذبة، ونزيل الآثار؟

وثب «كيملا» على «كايا». وتعارك الذئبان في ذلك اليوم لمدة طويلة على الأرض، حتى مات أحدهما.

كان «كيملا» هو من بقي على قيد الحياة.

كان بودي أن أجري على غير هدى، وأن أضرب الأشجار ضربات قوية، وأدوس النباتات، وأعوي كحيوان مسعور، وأفرّغ نفسي من غضب عارم أفقدني رشدي. وبهذه

الحركات التافهة، العديمة الفائدة المجردة من التفكير السليم ومن العواقب، أرخي العنان للاستياء الذي تراكم في داخلي، قادماً من مئة جيل قد سلف.

وأنفض، خلافاً لـ «كاياه»، شيخوختي، ووهني وأبعث القوة الحية في قبائلي وأرسلها تشن هجوماً على «كيملا» وأمثاله.

كنت أرغب في ذلك، ولكن لإنجاز رغبتي، ألم أتعلم منذ أمد بعيد، بأنه يجب عليّ أن أوقف الضربات، وأمسك عن الكلام، وأهدّئ القبائل، واستعير وجه أسلافي الممتنع، وأن لا أقدم للبيض سوى معركة المكر والخديعة...؟

أية دروب غريبة كانت تطؤها خطواتي؟

# 13

مضت ستة أيام أخرى، ما من شيء حصل فيها ولا أحد جاء. في تلاقيات الهدوء والصابيات [1] المتغطرسة كانت الرياح تتمكن جيداً من أن تقلب السماوات رأسا على عقب دون أن يكترث أي كوكب بذلك.

أنا، أشيني، سليل الذرية الأزلية، اعترفت في النهاية بأنني كنت أحمل آخر بذرة جبلية في هذه البلاد.

كتبت الرسالة الثانية بالدم ذاته ونقلتها بالطريقة ذاتها ولكن في وقت متأخر من الليل. حتى أن أشعة الفجر الشاحبة كانت قد بدأت تداعب البحر في الشرق. وكانت البيوت المتلاصقة وصمتها الرمادي يضفيان على المحمية شكل مقبرة

---

(1) الصابياتْ: رياح مستمرة تهب طوال السنة في القسم الشرقي من المحيطين الهادي والأطلسي.

عجيبة. مقبرة بلاد موسومة بشواهد رمزية.

ربما كان حقيقياً موت «بيكال» و«تييرنيش» والآخرين جميعاً، كل امرأة وكل رجل متحدر من أصلنا العريق، وربما يستفيقون في الصباح لا أحياءً بل أشباح شعب زائل.

في هذه الليلة الظلماء المعدومة القمر، الساكنة والناعسة، تمكنت من أن أُسمِّر الرسالة الثانية على باب «ليڤيك».

«إذا لم يأت **زعيم البيض الأكبر** خلال ثلاثة أيام لمناقشة تحرير شعبي، فإنه سيريق ماء وجهه».

هل من انسان شريف، يحفظ ديمومته، يرضى أن تطعن كبرياؤه في الصميم، وأن تهان كرامته؟ وأن يُراقَ ماء وجهه، دون أن يلين؟

من أعماق موطني الموحش، كنت أستطيع أنا، إيصال الاهانة إلى رئيس وزراء كندا. ولن تقوم له بعدها قائمة، لأن من الواجب المقدس على الزعماء أن يسكنوا أكثر مواطن الشرف سمواً، وهذا هو الشرط الأول لأولئك الذين عهدت الألهة إليهم بقدر السلطة. لا يستطيع أحد، أراق ماء وجه، أن

يحكم، إذ سيكون حكمه ضرباً من الخديعة.

نمت، طوال ثلاثة أيام، كنت أحس في داخلي بإعياء مستمر يغرّر بي، وبالحاجة، إن صح القول، إلى اللجوء إلى عالم الأحلام، حيث لا يمكن لأي شيء من واقعي أن يطالني.

مثل حيوان يتكور في عمق جحره ويقضي الشتاء نصف ميت.

حلمت.

ونُقلت صوب الأراضي القديمة حيث كان الجبليون يشغلون القمم والمرتفعات العالية، وحيث كانت القبائل مجتمعة تنشد، بصوت واحد، أغنية حب كبير لمواطن الرجال التي يملكونها، ولما وهبته لهم الآلهة.

كيف أشرح لك هذه الأحلام؟ لم تكن هناك سوى صور متواصلة، ضرب من امتداد زمني كبير كنت أراقبه من بعيد، مساهماً، بلا حركة، غارقاً فيه مبعداً عنه في الوقت ذاته.

كنت واحداً منهم (أنشد معهم، وأشاطرهم سعادتهم). ومع ذلك كنت أعرف انني لست سوى جبلي مهزوم نائم في مخبئه.

انفصل رجل عن القبائل، وتخطى الأودية ثم جاء يلمس كتفي.

ـ مااسمك؟ سألني.

ـ أشيني، وأسكن عند بحيرة «أوينوباكو».

ـ أنا أيضاً اسمي أشيني، قال الرجل الذي تجاوز أبواب الجحيم.

ثم فتح الجرح في ذراعي وغمس اصبعه في دمي ثم تذوقه. بعد ذلك ابتسم هازاً رأسه. وكان لصوته حلاوة عسل شهر آب.

ـ هذا دم نقي وأبيّ، قال الرجل، فيه مذاق التضحية.

أدركت، بعد أن استيقظت، بأن الرجل أبلغني رسالة، فمن أعماق أراضي الصيد الوفير باركت الآلهة عملي.

عند فجر الأيام المقبلة، سيكرم كل دم يسيل وسيُخلّد. لم أعد وحيداً. ولن أكون وحيداً بعد الآن. رابطة مقدسة بين الانسان وبين روحه، لقد استعدت روحي. ذلك لم يعد يُسمى الابن البكر أو الابن الأصغر، كما نسيت اسم ابنتي الهاربة. وكان بوسع جسد زوجتي أن يرقد تحت الأرض المختارة. كان قد قُدّر لي ما هو أكثر وأفضل. سأقيم الآن في المعسكر الأخير، معسكر المختارين الموسومين في قلوبهم.

«هذادم نقي وأبيّ، فيه مذاق التضحية...»

ليس بوسع شيء أن يحصل من الآن فصاعداً. الطريق قد تم اجتيازها وحلت النهاية. كنت أستطيع أن أنصب الخيمة الجلدية التي لن تقوّض أبداً.

مضت ثلاثة أيام، ولم يأت زعيم البيض الأكبر. جرحتُ ذراعي من جديد وجمعت دم الكتابة في وعاء من اللحاء.

هذه الرسالة الأخيرة حملتها في فجر اليوم التالي. إذا كانوا ينتظرون قدومي في عزّ الليل، فلا بد أنهم قد تعبوا، فقد رأيت الشمس تصعد من الشرق ولا بد أن المراقبين المتوقعين قد غفوا.

عندما تسلم «ليفيك» الرسالة، قرأ الكلمات البشرية الأخيرة التي كتبتها.

*«الآن أراق زعيم البيض الأكبر ماء وجهه، وستضطرب البلاد برمتها، وأولئك الذين سينظرون غدًا إلى رمز انحطاطهم، سيشاهدونني بكامل قوتي».*

# 14

ينحدر طريق من المدن الكبيرة، ويسير بمحاذاة قرية الهنود «بيتسياميتس».

شيّد البيض جسراً حديدياً، كتلة هائلة بشعة تربط بين ضفتي نهر «بيرسيميس» الشديدة الانحدار.

بعد أن تجتاز هذا الجسر للدخول إلى الأراضي الممنوحة للهنود تجد بجانب الطريق عموداً يحمل اعلاناً مقيتاً.

**محمية هنود «بيتسياميتس»**

كنت غالباً ما أتأمل، بقرف، شاخصة الحدود هذه. لأن رمز التفرقة كان يتجسد هنا جلياً بكامل قوته. قيد، حاجز شائك لايمس.

هنا، على مرأى من الجميع، معرضاً لهبات الريح الباردة، وفي الضوء الشاحب لصباح الشتاء، سأنجز مصيري،

مؤمناً لقومي مصيره.

لم يسمعوا صوتي، صوت امرئٍ يصرخ من صحرائه وحيداً.

ولكنهم سيسمعون أصواتاً أخرى، صوت العادلين المروِّع، الصوت الذي سوف يزيد ارتفاعه، هذه المرة على الأقل، الصوت الذي سوف يلم شمل الجميع، منادياً بعدالة القوانين.

عندماوصلت إلى هادية الطريق، بدت لي النواحي موحشة أكثر من أي وقت مضى.

بِمَ كان الجبليون المخلوعون يحلمون في أسرتهم الرخوة جداً.

تحت كم سقف انجزت، في تلك الليلة بقرية هنود «بيتسياميتس»، عملية استمرار النسل، التي ستكون ثمارها الخريفية، دون معرفة مسبقة، أوائل مواليد سلالة الجبليين الجديدة والحرة؟

هل سيكونون مدينين لي بدمهم الجديد، حتى وإن كان

ذلك مجرد ذكرى باهتة لطالب مشاغب.

هل سيكون لاسمي رنّةُ عذوبة وإباء لديهم؟

علقت، في أعلى العمود الخشبي الأبيض رباط عدّتي التي كنت أُعلقها في كتفي، تلك التي كنت قد صنعتها بنفسي.

معلقاً، على هذا النحو، لا تكاد قدماي تلمسان الأرض، كنت أتأرجح مع ريح الصباح.

بعد ذلك قطعت، بمديتي، شريان زندي الأيمن، ثم بسرعة شريان الزند الأيسر.

فسالت الحياة من جسدي، سيلاً سريعاً، في الصباح الشاحب.

ولكنني كنت أجهل، وأنا أموت شيئاً فشيئاً، معلقاً على صليبي الجديد، بأن اية من رسائلي لم تصل إلى يد **زعيم البيض الأكبر.**

وبأنهم سيدونون في وثيقة وفاتي الرسمية الخزي الأخير:

*أشيني، من قبيلة الجبليين، 63 سنة. انتحر لحظة اختلال عقلي.*

# الخاتمة

حل ظلام دامس، خرجت منه إلى النور الشامل.

في جوار المحسن «تشي مانيتو» أسكن الآن، فيما وراء الحياة، في **أراضي الصيد الوفير**.

التقيت بكل من مات من جماعتي قبلي. كسبت الحظوة لدى كل «مانيتو» و«تشي مانيتو» المتجزئ السرمدي، لأنني خضت، باسم قبائلي، معركة بطولية بلا أمل.

هنا عرفت كل الأحداث لكل الحيوات التي كانت أثيرة لديّ. قلق زوجتي، وتأنيب الضمير الذي أصاب ابني شبه الخائن، عندما انتزعت رصاصة الرجل الأبيض منه كل حياة. والمراحل الأليمة لوفاة ابني البكر يوم هلك عند ضفة موحشة.

ولكنني أعرف الآن أيضاً، أفراحهم جميعاً، والرغبة الخفية في قلب ابنتي، التي لا تزال حية، في العثور ثانية على السعادة القديمة.

وأملك العلوم كافة.

علوم أرض الغابة، وعلوم السواحل والمياه والجبال والوديان.

وكل المفردات العديدة والمتنوعة التي ابتُكِرَتْ في لغتي، وإيقاع تعبيرها، وتحضرني الآن دون جهد، فأستطيع أن أكتب فوق اللحاء، بدمي الذي لا ينضب، صفحات هذا الكتاب.

وأرى كذلك منشآت البيض في بلادي، وأرى شقاء الهنود. وأقدر حجم قوى البيض تقديراً صحيحاً وكذلك مدنهم وصناعاتهم وسدودهم وطرقاتهم التي تمزق غابتي.

ولا أستطيع أن اشك، بعد الآن، في أنه على الجبليين، لكي يقايضوا أسمالهم بالسترات الجلدية اللماعة، ولكي يسكنوا في منازل لا تنفذ إليها أية ريح في الشتاء، عليهم أن يتنكروا، إلى الأبد، لما كانوه، ولما كان بوسعهم أن يصبحوه.

لا يدور الحديث، بالنسبة إلى البيض، حول فرض هذه

الأشياء، حتى إنه لم يدر في خلدهم مناقشتها، لشدة ما تبدو لهم جيدة ومنطقية.

وكما قدموا في الماضي المصنوعات الزجاجية الصغيرة والبضائع الرخيصة مقابل الفراء، يقدمون اليوم لبني قومي النيونات والطرقات المعبدة، والبذلات المصنوعة من الأنسجة الصناعية.

والتعاسة تكمن في أن شعبي لا يعترف بحماقة صفقات الغش هذه.

إنهم لا يدركون ما يعطون مقابل ذلك، لأن أحداً لم ينبئهم، ولأنه لا توجد كلمات في لغة البيض تصور ثروة يجهلون هم سعر تداولها.

سكان المحميات وحتى البيض من سكان المدن لم يدركوا سبب موتي. ولم يُرِقْ زعيم البيض الأكبر ماء وجهه.

بل لم يستلم رسائلي قط.

لذا أكتب اليوم كتاب الدم هذا. ولن تكون هناك

أيةحاجة لقراءته. بوسعي، في عالمي الآخر، أن أعمل على أن تجد كل كلمة من كلمات لغتي كما أسجلها فوق هذا اللحاء، أن تجد صدى في نفس خلف لي، وأن يقوم هذا الخلف، أثناء صحوة ضمير عادلة، بنقل القصة.

ولكن شعبي جد صغير، والشعوب الأخرى جد كبيرة، بحيث لن تترك هذه القصة أثراً أكبر من أثر رأس سهم منحوت من الصوان، راقد في واجهة أحد المتاحف لاثارة دهشة الفضوليين الذين لا يدركون مغزاه التاريخي.

# أشيني

استقبلت رواية «أشيني» بحرارة منذ صدورها، ولم تفتر هذه الحرارة على مر السنين، كما أن الجوائز والمكافآت التي نالها المؤلف بعد صدور «أشيني» لا تعكس سوى جزء من مكانتها عند القراء الذين يزداد عددهم باستمرار..

لقد رحب النقاد بالاجماع، برواية «أشيني» وعدّوها عملاً رائعاً، وضرباً من ملاحم الحرية والكرامة. قالوا فيها:

«إن ما يترك أثراً بالغاً في نفس القارئ هو لغة الرواية.. «لغة ساحرة، مع ذلك فهي بسيطة وسهلة وكلاسيكية، مع غنائية خفية شبه متقشفة...». و«اسلوب متزن ومعتدل وفاخر..»

وتتحدث عن نفحة بطولية تبعث الحياة في الشخصية المحورية لهذه اللوحة الجدارية حيث يتفجر انحطاط شعب كصرخة دم، ويكبر المشهد ليشمل أبعاد البشرية برمتها...».

«إن «أشيني» هي طراوة النباتات وحرية الفضاء الرحب. إنها قصيدة رجل يتقن الاصغاء إلى صفير الريح وتغريد الطيور فوق الأغصان.. إنها الهمس الرقيق للجدول المنساب عبر الغابة...».

دار الحصاد
سورية - دمشق
ص.ب: ٤٤٩٠ - هـ/فا: ٢١٢٦٣٢٦